خيسوس كامبوس غارثيا

مسرحية

رأس الشيطان

ترجمة وتقديم د. خالد سالم

دار فينيكس للترجمة والنشر



القاهرة 2006

خيسوس كامبوس غارثيا

رأس الشيطان

ترجمة وتقديم د. خالد سالم

دار فينيكس للترجمة والنشر



القاهرة 2006

الكاتب: خيسوس كامبوس غارثيا

المترجم: د. خالد سالم

الناشر: دار فينيكس للترجمة والنشر.

الطبعة العربية الأولى : القاهرة 2006

رقم الإيداع: 2006/10531

البريد الإلكتروني::E.mail

fenixegypt@yahoo.com

دار فينبكس للترجمة والنشر

Phoenix for Translation and Publishing



القاهرة 2006

مسرحية

رأس الشيطان

تأليف
خيسوس كامبوس غارثيا

ترجمة وتقديم د. خالد سالم

ترجمت عن النص الأصلي بالإسبانية:
La Cabeza del diablo

للكاتب المسرحي الإسباني
Jesús Campos García

إلى روحيهما،

أبي وأخي:

إلى ناصر.

الفهرس

تقديم

بقدر ما هو مطروق هو مجهول بالنسبة لنا نحن العرب موضوع الأندلس، فالحديث عن هذه النقطة المضيئة في تاريخ الحضارة البشرية ، بكل ما تعنيه من سمو وانحطاط في التاريخ العربي، حديث شجي، مؤلم، مثير للعواطف والأفكار المتطرفة، كلها في آن واحد. ما من عربي أو مسلم إلا ويفخر بالأندلس، إحدى النقاط الفارقة في تاريخ البشرية بكل ما عنيت وأثرت في ضفتي بحر الروم، غير أن هذا الفخر يثير حزن بعضنا نظرًا إلى تكرار المأساة اليوم في بلدين عزيزين، العراق وفلسطين، فلم يستخلص حكام العرب والمسلمين الدرس من مأساة الأندلس، بل إنهم يبالغون في تكرار مواقف ملوك الطوائف وقراراتهم ، ويتبارون في هذا.

تؤكد كتب التاريخ أن أحد أمراء الأندلس أهدى ابنته إلى حاكم من حكام الممالك المسيحية، الإسبانية، كي يرضى عنه ويتركه حاكماً لمملكة هزيلة ضمن الأندلس الممزقة. إلا أن الحاكم المسيحي لم يحترم الاتفاق وغدر بالعربي الذي هان عليه شرفه. ولكم من حاكم عربي اليوم يكرر هذا التكتيك الرخيص إرضاءً لإمبراطورية العصر. فهل استخلصوا الدروس من سقوط الأندلس وضياعها إلى الأبد؟

اليوم ونحن نتعرض لهجوم شديد على وطننا وثرواتنا ومعتقداتنا أصبحنا مطمعًا للجميع، والأندلس خير مثال على ذلك. فهناك من يزمع تزوير التاريخ بالحديث عن ثقافات ثلاث بنت الأندلس، أي الثقافات الإسلامية والمسيحية واليهودية، ولمَ لا وقد زوروا كل شيء في فلسطين ونسبوا تراث الفلسطينيين إليهم؟! مع العلم بأن اليهود عاشوا في الأندلس تحت كنف الثقافة العربية ولم يقدموا شيئاً مهماً ضمن ثقافتهم، إلى درجة أن العبرية أخذت قواعدها وعروضها من العربية. وضمن هذه الردة القوية على كل ما هو عربي تراجع مستعربون إسبان عن مواقفهم السابقة، من

بينهم سيرافين فانخول، الأستاذ في قسم الدراسات العربية والإسلامية والشرقية في جامعة مدريد أوتونوما، الذي قفز إلى مركب اليمين الإسباني بزعامة رئيس الحكومة السابق خوسيه ماريا أثنار، وأخذ يكيل الذم للعرب والمسلمين، مشوهًا المفاهيم الإسلامية ومفسرًا إياها حسب هواه. ولم يكتفِ بهذا، بل أهاب بالإسبان أن يطالبوا بالأندلس مساواةً بالعزب[1].

لحسن الحظ أن مواقف وشخصية هذا الأستاذ ليست كثيرة بين الإسبان الذين لا يزالون يعتزون بتاريخهم المشترك مع العرب، الأقرب إليهم وإلى ثقافتهم، رغم استمرار سياسة غرس الأفكار المعادية لنا والرافعة من شأن اليهود منذ أن اعترفت إسبانيا بإسرائيل في عام ١٩٨٦، في برامج تلفزيونية. الحقيقة أن مواقفه هذه محيرة، خاصة تحوله الكبير هذا.

---

(1) لمن يرد أن يستزيد من أفكار هذا الأستاذ الشيطانية عليه أن يتابعها في صحيفة أ.ب.ث الإسبانية، لعل أبرزها مقاله بعنوان "كره الإسلام Islamofobia" الذي نشر ضمن سلسلة مقالات دورية بتاريخ ٢٤-٢-٢٠٠٦، وقبله مقال آخر بعنوان "لا أريد أن أكون ذميا No quiero ser «dhimmí»" ، في الجريدة نفسها بتاريخ ٣-٢-٢٠٠٦ ومشاركاته في برامج تلفزيونية حول المهاجرين العرب والمسلمين. عندما قمت بزيارة مدريد، يوماً واحداً، في فبراير ٢٠٠٦، لفتت انتباهي زميلة في جامعة مدريد إلى هذا التحول في شخصية سيرافين فنخول وزودتني ببعض مقالاته في هذا الصدد. أعتقد أن من واجب العرب - على وجه التحديد السفارات العربية- أن يردوا عليه بحجج دون تشنج. علمًا بأنه يعمل مستشارًا في مؤسسة فكرية تابعة للحزب الشعبي، اليميني، الذي خسر الانتخابات على اثر أحداث ضرب القطارات التي وقعت في مدريد في مارس ٢٠٠٤، مما حمل رئيس الحكومة السابق ورئيس الحزب خوسيه ماريا أثنار على شن حملة على الإسلام والمسلمين. بدافع أن الضربات الإرهابية التى قامت بها شرذمة تحت اسم الإسلام كانت سبب خسارته لتلك الانتخابات وفوز الحزب الاشتراكي بقيادة الشاب خوسيه لويس رودريغيث ثباتيرو الذي فهم اللعبة وبادر بسحب القوات الإسبانية من العراق في السنة نفسها.

لعل مواقف صاحب المسرحية التي بين أيدينا، مسرحية "رأس الشيطان"[٢]، خير مثال على اعتزاز الإسبان بالحقبة الأندلسية من التاريخ العربي، إذ بذل جهدًا خلاقًا في استرداد العناصر التاريخية التي كانت حاسمة في ما وصلت إليه من رقي القارة الأوروبية والتبادل الثقافي بين ضفتي البحر المتوسط.

والمؤلف خيسوس كامبوس غارثيا حاز الجائزة الوطنية للمسرح عام ٢٠٠١، وكان موضع تكريم من مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي في دورته الخامسة عشرة عام ٢٠٠٣، وله أعمال مسرحية كثيرة. والمسرحية ترتوي من نسغ الثقافة العربية في الأندلس التي انتقلت إلى أوروبا عبر مسيرة الترجمة. والمسرحية موثقة بشكل جيد حول الثقافتين البارزتين حينئذ، العربية والمسيحية، دون نسيان الحضور اليهود في ربوع الأندلس.

مما لا شك فيه أن "رأس الشيطان" تتسق مع مسيرة المؤلف المسرحية، وتتواصل مع التجريب في عالم المسرح، وتمثل التزامًا مع المشكلات المعاصرة، وإن كانت تختلف عن أعماله الأخرى في أنها تنتمي إلى المسرح التاريخي. وعنوانها يحمل على الإيحاء، ويثير فضول القارئ منذ أن تقع عيناه عليه. ورأس الشيطان تعني في هذا السياق وحسب المؤلف رأس المعرفة، الرجل ذا الرأس الذي على شكل طائر، ويحيل إلى تمثال الإله الفرعوني توت. هذا دون أن يفوتنا الإشارة إلى أنه يحيل أيضًا إلى حلم البطل وجنونه وشبقه بالسلطة.

---

(2) استخدمنا في ترجمة هذه المسرحية نص:

Campos García, Jesús, *La Cabeza del Diablo*, Junta de Andalucía, Consejería de Cultura,. Es la edición que manejamos en la traducción. Está incluida en un solo volumen que además de *La Cabeza del Diablo* tiene otras dos obras -del mismo autor-: *Es mentira* y *A ciegas*.

ولفهم المسرحية يجب وضعها في سياق معاصر إذ يمكن أن تنسحب أحداثها على المسرح العالمي لما فيه من تناضح ومواجهات بين ثقافات العالم المعاصر. تدور مشاهد المسرحية في إطار الواقعية التاريخية، وتنم عن مؤلف ذي معرفة عريضة بالموضوعات التي يطرحها، ويفاجئ القارئ العالم بهذه المعرفة. ومن بين معارفه العريضة اطلاعه على المصادر العربية، خاصة تلك المتعلقة بالإحالات التاريخية والفلسفية للصوفية. ورأس الشيطان ذاته يحيل القارئ أو المشاهد إلى هذا المجال، وهو ما أكده الكاتب إدريس شاه[3] في كتابه عن الصوفية حيث يؤكد الأصل العربي للعنوان، إذ أخذ من "رأس الغول" أو "رأس الشيطان" في الفكر الصوفي. وهو عنوان يضفي غموضًا وتشويقًا، ويحيلنا إلى حلم السلطة، السلطة المطلقة.

تطور المسرحية: حلم

بداية المسرحية وهمية، خيالية، تحيل إلى مواقف لا تفتقر إلى الهزل، دون تخلي الكاتب عن العمق في الرمزية. المشهد الأول من المسرحية محدد تاريخيًا، تدور أحداثه في قرطبة عام ٩٦٠ ميلادية/٣٤٤ هجرية ـ التاريخ الهجري من وضع المؤلف ـ. يبدأ المؤلف بإرشادة مسرحية شارحة يقدم فيها السارد عناصر تعريف تكشف هوية وشكل هذا الرأس محور العمل الدرامي. هذا الرأس الناطق من خلق خيال جيلبرت في بحثه عن السلطة. يتدخل الرأس ثماني مرات في المشهد الأول من الفصل الأول ليطالب جيلبرت بالوفاء له مقابل تحقيق ما يريد له، ما يشكل جزءًا مهمًا من البناء الدرامي. وفي بعض المداخلات، عندما يلجأ الرأس إلى صوت السارد، يضفي جوًا كوميديًا مما يلطف التطور الوهمي لعالم المسرحية.

---

(3) Shah, Idries, *Los sufís*, (Introducción de Robert Graves y traducción de Pilar Giralt y Francisco Martínez), 4ª edición, editorial Kairós, Barcelona, 2003. P. 290.

والسارد، بعيدًا عن العالم الخيالي لما هو في إطار التمثيل، يشرح العرض عبر الخيال الدرامي الذي يتعامل معه المؤلف بفطنة. ومن هذا السياق يخلق جوًا قصصيًا يضعه القارئ أو المشاهد في سياق مسرحي بحت، بفضل التعامل الحذق مع الشخوص والزمان، بتداخل الحاضر والماضي والمستقبل. وتلعب الإرشادات دوراً مهماً في هذا السياق، إذ تحمل على خلق عالم زاخر بالمخلوقات الخيالية. والسارد والإرشادات هما السبيلان الوحيدان اللذان يقدمان معلومات مباشرة في هذه المسرحية. فمن المعروف أن المؤلف -نظرًا إلى قصور المسرح أمام الرواية- يلجأ إلى الإرشادات لتوسيع المعلومات الموعزة والذاتية التي تقدمها الدراما، هذا إذا أخذنا في الحسبان طبيعة الرواية إذ تقدم تفاصيل وصفية للشخوص والأجواء والأحداث.

مع أن الإرشادات مقصورة على الفنيين أو المخرج، المسئولون عن العرض، فإنها في هذه المسرحية توجه أيضًا إلى القارئ. لهذا نجد أن لا غنى عنها في القراءة، إذ ليس كل الأعمال المسرحية تتحول إلى عروض، وهي منتج أدبي في الوقت نفسه. هذا دون الخوض الآن في تقييم أزمة صالات المسرح أو تراجع اهتمام الجمهور بالمسرح الذي يولي اهتمامًا أكبر بنتاج العولمة والتكنولوجيا المعاصرة. والمؤلف، خيسوس كامبوس غارثيا، يتميز بدقة الإرشادات ووفرتها، وهو في هذا الصدد لجأ إلى تقنية خاصة بالمسرح تهدف إلى تزويد القارئ المتخصص وغير المتخصص بمعلومات عن تطور العمل المسرحي.

وهو شخصية فريدة، متكاملة في عالم المسرح، يتعامل مع أوجه الإبداع المسرحي كافة. وهو مسرحي قادر على ممارسة جوانب مسرحية عديدة، مثل الكتابة الدرامية، والإخراج والسينوغرافيا، والتنظير، والتدريس. وهذا الاستعداد حمله على إخراج كافة أعماله، إلى جانب مسرحيات كتاب أخرين. ويندرج

نتاجه المسرحي ضمن ما يطلق عليه المسرح الإسباني الجديد، وهو ذو نظرة تشاؤمية للمجتمع المعاصر، الذي يعالجه في أعماله كلها[٤].

إلا أنه مفكر يؤمن بالتفاهم، بالحوار بين الحضارات، يرفض أفكار العولمة الأمريكية المتمثلة في نظرية صامويل فيليبس هانتينغتون، في كتابه "صراع الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي"، التي أصابت المسرح السياسي العالمي بالفقر منذ أن أطلقها في مطلع التسعينات على أثر انهيار الاتحاد السوفيتي وحرب الكويت. ومن منطلق معرفتي عن قرب بخيسوس كامبوس غارثيا، ذي الأصل الأندلسي - من مواليد مدينة خاين، جيان العربية، عام ١٩٣٨- يمكنني التأكيد أنه من المثقفين الإسبان الذين يقدرون الثقافة العربية، ويناصر القضايا العربية المعاصرة، وأبرزها قضيتا العراق وفلسطين.

ومسرحية "رأس الشيطان" هذه نتاج معتقدات مبدعها، طريقته الخاصة في فهم الإنسان. وعليه فإنه عادل في عرفانه بأهمية أكبر منبعين لحضارة الأندلس، العربي والمسيحي، دون أن ينقص الثقافة اليهودية حقها لتأتي في درجة أقل من السابقتين. ومع ذلك فإن المؤلف لم ينس التعريج على التعايش بين الأديان الثلاثة في الأندلس، وإن لم يكن سلمياً في كل مراحله، كان مثمراً، ينم عن تسامح عربي تَمثّل في شغل يهودي وظيفة مترجم في القصر، الحاخام موسى بن حنوش، والد سارة التي كانت تخبئ مخطوط رأس الشيطان في منزلها.

تدور أحداث المشهد الرابع في الفصل الثاني بين الصعلوك المتلهف على السلطة جيلبرت وابنة الحاخام سارة. لجأ إلى حيل

[4] Gómez García, Manuel, *Diccionario Akal de teatro*, Madrid, ediciones Akal. S.A.. 1997. p. 140

تخيم على أجواء العصور الوسطى كي يقنعها بفتح شراعة الباب، مع أن في ذلك مخالفة لأمر أبيها. يواصل خداعه لها فيقنعها بفتح الباب، ليدخل الكهف المخبأ فيه المخطوط. هذا الوصف، مضافًا إلى مناخ الصعلكة(٥) من قبل الاثنين، يجعل من هذا المشهد جديراً بأن يكون سيناريو شريط سينمائي شائق، وهو الفيلم الذي ينتهي بحصول البطل جيلبرت على المخطوط.

تندرج هذه المسرحية ضمن الأعمال الأدبية الإسبانية التي تغوص بنا، عربًا وإسبانًا، في أعماق ماضٍ مشترك، كانت تتعايش فيه الثقافتان اللتان تمثلان اليوم ضفتي البحر المتوسط. والأعمال القصصية والمسرحية التي تعالج هذا الماضي تثري أرفف المكتبات الإسبانية دون اهتمام كبير من قبل الإخصائيين، وتستحق أن تنقل إلى لغتنا، ومن بين هذا الأعمال يمكن الإشارة إلى "أهلاً"، و"مقبرة"، و"مكتوب"، و"كتاب"، و"الزهراء". وهي عناوين جاءت كما هي عربية بحروف إسبانية دون ترجمة.

والتراث المشترك ممثل بشكل جيد في هذه المسرحية المكتوبة على أعتاب القرن الحادي والعشرين، في مناخ معادٍ للضفة الجنوبية لحوض المتوسط. وهي دعوة إلى موقف انتقادي أمام الواقع. إنه واقع يقترح مراقبة حاضر يحاول الشركاء فيه تجميله بأدوات رثة كي لا ندرك أنه يماثل ماضيًا عاشته المنطقة من تكرار مكائدهم وحيلهم(٦).

---

(٥) تذكرنا حيلة البطل في الاستيلاء على المخطوط بحيل الصعاليك من ابطال أدب العصر الذهبي في الأدب الإسباني مثل "لاثاريو دي تورميس" الذي ترجمته ونشرته في نهاية السبعينات مسلسلاً في صحيفة "المساء" القاهرية في ربيع عام ١٩٧٩، تحت اسم "مغامرات صعلوك"، بالإضافة إلى أعمال أخرى تتناول هذا التكنيك الروائي الذي كان سائدًا في تلك الفترة.

(6) Serrano, Virtudes, " La otra cara de Jano", introducción de *La Cabeza del Diablo*, Asociación de Autores de Teatro, Comunidad de Madrid, 1999, p. XVIII.

في هذه المسرحية، ذات البعد التاريخي، لا يرغب المؤلف في سرد أمجاد الماضي، بل في أن يكون العمل أداة نموذجية لانتقاد نواقص الحاضر عبر الإقصاء. ولهذا فإنه يسترد شخصًا من الماضي المشترك للثقافتين بهدف جعل المشاهد يتأمل ويفكر في مواقف وتصرفات تنتمي إلى الحاضر على أساس أحداث من الماضي. وعليه فيمكنه أن يستخدمه في التأمل في عيوب وتعسف ونواقص لا تزال ترتكب رغم مرور الزمن وطوله.

ومع ذلك فالمسرحية تعد عرفانًا بفضل العرب على الحضارة البشرية من خلال الحضور العربي الزاهر في شبه جزيرة أيبريا، إسبانيا والبرتغال. ولعل أبرز نموذج في هذا الصدد هو الذي يسرده جليبرت-سليفستر الثاني في مداخلات عدة حول مدينة الزهراء، منها مداخلة تتعدى الصفحة، حيث يحكي فيها تجربته في هذه المدينة، القصر، خارج مدينة قرطبة، مع كل ما تمثله وترمز إليه من أبهة معمارية وتنظيم إداري وسياسي، أي إنها نداء لتعايش يرغبه ويشتاق إليه كثيرون من الشرق العربي والغرب.

وإمعانًا في نقلنا إلى ذلك المناخ العربي الأندلسي يطرز المؤلف مسرحيته بكلمات عربية دخلت واستقرت في اللغة الإسبانية، كلمات تنتمي إلى تلك الحقبة، من بينها: وزير، قاض، حريم، فقيه، جب، قصر، درب.... هذا بالإضافة إلى أسماء الأعلام التي تزين النص المسرحي. غير أنه يسقط في خطأ يرتكبه غربيون كثيرون -ومعهم بعض العرب- عند الإشارة إلى لفظ الجلالة الله إذ يقصره على الخالق بالنسبة إلى المسلمين برسمه بحروف إسبانية Alá وعند الحديث عن اللفظ نفسه بالنسبة للثقافة الغربية فيكتبه بشكل آخر Dios، أي الله بالإسبانية، مع أن الخالق واحد لا يتغير في الأديان السماوية. لهذا أعتقد أنه ما كان لكاتب في ثقافة ودراية خيسوس كامبوس غارثيا أن يقع في مثل هذا الخطأ، مثله مثل ذوي الثقافة العادية، خاصة وأنه وصل إلى معرفة دقائق التقويم الهجري

وأسراره وهو ما تجلى في هذا العمل، وهذا أمر يستحق التوقف أمامه إذا أخذنا في الحسبان أن كثيرًا من العرب يفتقرون إلى دراية استخدام التقويم الهجري.

هذا بالإضافة إلى المعلومات الثرة التي يزود بها المشاهد في بداية المسرحية من خلال الإرشادة الأولى عند الحديث عن جيلبرت إذ يقول: " تدور أحداث هذه المسرحية حول حكاية جيلبرت دو أورلياك: المستعرب والرياضي والميكانيكي والمخترع وفيلسوف مدرسة رانس Reims، التي شغل فيها العرش البابوي في نهاية الألفية تحت اسم سيلفستر الثاني، وقيل عن -دون أساس من الصحة- إنه وصل إلى امتلاك **رأس الشيطان**".

وعن هذه الشخصية يقول د. بسام بركة ضمن مقال له عن الأرقام والأعداد ودور العرب في تطويرها ونقلها إلى الغربيين "... لكن تاريخ انتشار الرقم والأعداد عبر العلوم العربية، يتعدى مسألة الشكل أو الرسم. فالتأريخ لدخول الأرقام العربية إلى أوروبا، يبدأ مثلما تبدأ الحكايات التي لا يكاد العقل يصدقها. ففي سنة ٩٤٥ ميلادية، وُجد طفل صغير على باب أحد الأديار في منطقة أوفرني في فرنسا. اعتنى رهبان الدير بهذا الصبي وأحسنوا تنشئته، وعندما شب وأبدى من الذكاء والفطنة ما لا يوجد عند غيره من الشباب، سُمح له بمرافقة الماركيز بوريّل دي برشلونة إلى الأندلس، وهو لا يزال في العشرين من عمره. وقد استطاع خلال وجوده في الأندلس أن يختلط بالعلماء العرب الذين علموه كيفية الحساب بالأرقام الجديدة التي كانوا قد أدخلوها إلى بلادهم منذ فترة قصيرة. وكان بذلك أول عالم غربي يستعمل الأرقام العربية. هذا العالم أصبح في ما بعد أسقف مدينة رينس ثم انتخب بابا في عام ٩٩٩ تحت اسم سيلفستر الثاني"[٧].

---

[7] د. باسم بركة "الأرقام والأعداد ودور العرب في تطويرها ونقلها إلى الغربيين"، مجلة "حوار العرب"، عدد مارس (آذار) ٢٠٠٦. ص.١٢٦

ورغم تحامل خيسوس كامبوس غارثيا على بطل مسرحيته، إذ يصل إلى تعريته، فإنه يعزو إليه دورًا بارزًا في إطار التبادل الثقافي، إذ يؤكد أن فضل نقل الأرقام العربية إلى أوروبا يعود إلى جيلبرت، إلى جانب نقله الأسطرلاب والمعداد العربيين إلى أوروبا(٨).

إننا أمام شخصية تاريخية، بطل مطلق لهذه المسرحية، سافر إلى قرطبة، عاصمة الخلافة، بهدف إبراز علاقته المباشرة مع الثقافة العربية في الأندلس. هذه الرحلات المتكررة إلى أراضي الإسلام، في أقصى جنوب القارة الأوروبية، تنم عن معرفة قوية بالنصوص الفلسفية لابن مسرة، مع أن الاثنين لم يعيشا في الوقت نفسه، فمن المعروف أن الفيلسوف العربي توفي قبل مولد جيلبرت بخمسين عاماً. وقد عني المؤلف من وراء هذه المفارقة التاريخية إضافة عنصر درامي مهم على المسرحية.

لم يقتصر المسرحي في استفادته من الماضي على الأندلس، إذ عرج على الحضارة المصرية القديمة، وعلى وجه الخصوص الإلهة إيزيس، مازجاً في ذلك ما هو أسطوري بما هو واقعي. وفي المشهد الخامس والأخير من الفصل الثاني عاود الخوض في مصر الفرعونية من خلال إله الحكمة توت؛ والبرديات، وذي النون المصري.

الحبكة: السلطة

يلح على هوس البطل في العثور على رأس الشيطان "بافوميت" Bafomet أو Bufihimat، محور العمل كله، وهو رأس أسطوري، يمثل هوساً بالمعرفة. والكلمة الإسبانية تحريف للعربية "أبو الفهم" أو "رأس الفهم"، حسب بعض المصادر

---

(8) Campos García, Jesús, *La Cabeza del Diablo*, Junta de Andalucía, Consejería de Cultura. P. 157

المتخصصة في الفكر الصوفي تعني العقل المثقف، الفاهم، الضمير المتحول[9]. هذا الهوس يؤدي بالبطل إلى الالتباس، الهذيان، واختلاق مواقف من نسج خياله، في ما يتعلق بابن مسرة الذي يسهل على المشاهد أن يربطه بجيلبرت نفسه، ليصبح ذاته.

وفي هذا السياق، سياق الهوس بالسلطة، بالبحث عن رأس الشيطان، يلجأ إلى وسائل تنم عن خسة في بحثه، تصل إلى حد التحالف مع الشيطان من أجل تحقيق هدفه. وتصرفاته بهذا الصدد تؤدي إلى وصفه بمدعي الرؤى والطماع. كل هذا من أجل السلطة.

يعيش جيلبرت دي أورلياك هذه الثنائية، الازدواجية، التي تمثلت في التعايش الذي شهدته الأندلس التي كانت أول مجال لصدام الحضارات، تمثل في الحروب الدينية التي أسهمت بذورها في انتقال المعارف العلمية والفلسفية إلى الغرب. وخلاصة القول فأن لا شيء أبيض ولا أسود خالصاً، لا في الماضي ولا في الحاضر، بالطريقة التي يريد بها البعض إفهامنا. وهذا يلخص موقف المؤلف بوصفه مواطنًا أوروبيًا يعيش بدايات القرن الحادي والعشرين، أي بعد ألف عام من الأحداث التي يتخذها سياقًا تاريخيًا لمسرحيته[10].

الإرشادات المسرحية التي يدخلها المؤلف توضح كيف يكمن إعداد النص مسرحيًا. إنه يمسرح النص أمام أعين قارئ بعيد

---

[9] Shah, Idries, *Los sufis*, (Introducción de Robert Graves y traducción de Pilar Giralt y Francisco Martínez), 4ª edición, editorial Kairós, Barcelona , 2003. PP. -٢٩٠ حز290-292.

[10] وهو ما أسر لي به خيسوس كامبوس غارثيا في لقاء جمعنا على هامش معرض الكتاب المسرحي، في دورته الرابعة، في نوفمبر ٢٠٠٤، في العاصمة الإسبانية. وكانت فرحته كبيرة عندما أخبرته بمشروع ترجمة هذه المسرحية بعد قراءتها، إذ أكد لي أنه حلم أن يرى مسرحية "رأس الشيطان" في متناول القارئ العربي في بلد يكن له حبًا عظيمًا، مصر. وأعرب عن أمله في أن تقلص هذه المسرحية الهوة التي تفصل بين ضفتي البحر المتوسط. ولم يبخل عليّ من يومها في الرد على تساؤلاتي واستفساراتي حول بعض الجمل والتعبيرات والمفاهيم التي تتضمنها المسرحية، ولولا شروحه وإيضاحاته لبقي كثير من المفاهيم عصيًا على الفهم، ومن ثم خرجت الترجمة عرجاء مع أنني أستطيع أن أزعم معرفة دقيقة باللغة الإسبانية.

عن الخشبة ويقدم دليلاً ضروريًا للمخرج عند وضع مخططات إخراج هذا النص. وهي ضرورية لأيّ نص مسرحي، ولا يمكنه الاستغناء عنها ما دام أن النص لا يتضمن المعلومات اللازمة لوضعه في سياقه[11].

مما لا شك فيه أن قراءة "رأس الشيطان" أو مشاهدتها يمكن أن تسهم في جلاء كثير من القضايا المتعلقة بالواقع، فيما يتعلق بثقافات متجاورة وفي حالة احتكاك دائم، بدلاً من التسليم بالصدام المتقطع. إنها تلخص حكاية شخصية مثيرة للجدل عاشت بين هاتين الثقافتين، لتصبح بمثابة جسر بناء بينهما رغم كل المآخذ التاريخية عليها، خاصة في ما يتعلق بشبقه للسلطة. فرأس الشيطان كفكرة مجردة وليست ملموسة، تأمل حول أسباب وآثار السلطة، الموضوع الذي تقوم على اساسه البنية الدرامية.

إننا أمام بطل مكيافيللي في بحثه الدءوب ولهثه وراء السلطة بأية ثمن وأي طريقة. يلجأ إلى القسوة والتعسف، والظلم، مستغلاً في ذلك القوانين والأخلاق بشكل ذاتي. في هذا الإطار فإن استخدام المسيحية، السلطة في مفهومه، يبرر شتى أنواع التعسف والفظاعة والظلم طوال جزء كبير من المسرحية، رغم نداءات قرينه ابن مسرة المتكررة ومفاهيمه الفلسفية. غير أنه يبرر نفسه، مبدياً استعداده للوصول إلى السلطة بأي ثمن، وهو موقف يقربنا من فاوست ومن " أمير " مكيافيللي.

لهذا فإنه يشرع في تحقيق مشروعات كبيرة، إلا أن المؤلف يكبحه بمواجهته بصورته كبطل ونقيض في الوقت نفسه، يشكلان شخصاً ذا وجهين. هذا الشخص الحالم يختار طريق النجاح في حياته: كان راهبًا وخرج من الدير كي يصبح معلمًا لأمراء، رحالة

---

(11) Pavis, Patrice. *Diccionario del TEATRo. Dramaturgias, estética, semiología*. Editorial Paidós, pª edición 1998. pp. 25-26

ناقل لآثار ثقافية ليصل إلى سدة البابوية تحت اسم سيلفستر الثاني. كما أنه حقق شيئًا لم يستطع أحد تحقيقه في زمانه: الموت موتًا طبيعيًا دون أن يقتل.

يلاحظ أن مؤلف المسرحية كان واضحاً منذ البداية في جعل المتلقي يفهم أن هذا الشخص ليس موضع ثقة. ففي المشهد الأول من الفصل الأول يعريه في مشاجرة من أجل استرداد أربعين مرابطيًا – عملة أندلسية- من يوسف كان قد دفعها له من أجل الحصول على مخطوط "رأس الشيطان" ومغامرة عاطفية مع محظيات الخليفة. ويلاحظ من الحوار وقاحة شخص متهتك في تعبيراته، ويسهم في هذا يوسف والعامل. إنه شخص يتحالف مع الشيطان من أجل تحقيق أهدافه.

لم يقتصر المؤلف على تقديم معلومات خاصة بالحكاية والأسطورة، بل يدرج أيضًا كل ما يغذي هدفه وتفسيره الذاتي، مثيرًا رأي القارئ أو المشاهد. ففي كثير من المواقف يقدم إرشادات تنم عن جوانب إخبارية واضحة. إلا إنه لا يزمع بهذا تحديد إرادة المخرج تاركًا له مجال تحديد تفاصيل الديكور والسينوغرافيا. وربما يرجع هذا إلى كونه مخرجًا إضافة إلى كونه مؤلفًا.

تدور أحداث المسرحية طوال ثلاثة وأربعين عامًا من حياة البطل، تتوزع على خمسة عشر مشهدًا، أي خمسة في كل واحد من الفصول الثلاثة التي تكون العمل. ومع هذا فإنه تشمل تنوعاً في الأسلوب والموضوع بحيث لا تقبل تعريفات جاهزة أو بسيطة، ما يجعل منها نصًا مكثفًا، جماعياً وفي الوقت نفسه شائقًا لأي قارئ.

هناك شخوص متنوعون يتقاسمون اللحمة الدرامية للعمل في نموذج يحتذى من التناضخ بين ثقافتين مختلفتين وقريبتين، العربية والأوروبية. في هذا السياق تظهر أسماء مثل يوسف، ابن مسرة، ابن أبي عامر، المنصور، إلى جانب سارة، وجيلبرت،

وأتـون الثالـث، ويوحنـا السـادس عشـر... إنهـم شـهود علـى تـلاقٍ تاريخي بين حضارتين في حاجة إلى تكراره اليوم.

الزمـان والفضـاءات متعددة ومحـددة فـي مطلـع كـل مشـهد. والملفت أن المشـاهد الأولـى تجـري فـي قرطبـة فـي زمـان يسـتخدم لتحديده التقويمين الهجري والميلادي، أي العربـي والغربـي. إلا أنـه يضع التقويم الشمسـي، الغربـي، فـي مقدمـة المشـاهد التـي تحـدث فـي أراضٍ أوروبية، مثل رومـا ورانـس ورافينـا، بالإضافـة إلـى القـدس. الشـخوص، مـن الثقـافتين، مختلطـون فـي المشـاهد التـي تجـري فـي قرطبة، في حين تجدهم في الجغرافيات الأخرى نجدهم ينتمون إلى الثقافة المسيحية باستثناء ابن مسرة، وقد سبق أن أشرنا إلى أنه قرين جيلبرت لهذا نجد ظهوره يتكرر في إطار شبحي.

تلعـب قرطبـة، عاصـمة الخلافـة، دورًا مركزيًـا لمسـرح الأحداث من منطلق كونها بوتقة تاريخية للحضارتين، ولما لها من معنـى مشـترك لهمـا. وإلـى جانبهـا نجـد مدرسـة طليطلـة للترجمـة، ومدينة الزهراء، والقصر، وأمكنـة تاريخيـة أخـرى وشخوصًـا، كلهـا تثري حوارات الدراما.

تتخــذ أحــداث المســرحية الفتــرة الممتــدة مــن ٩٦٠ ميلادية/٣٤٤ هجرية إلى ١٠٠٣ ميلادية، أي الفترة الأكثر ازدهارًا في تاريخ الحضور العربي في الأندلس. الفصل الأول يشغل الفترة بين عـامي ٩٦٠ و ٩٩٧ ميلاديـة، فـي حـين أن الفصـلين الآخـرين، الثاني والثالث، يحتلان ستة أعوام فقط.

أي إن الفصل الأول يحتل ثلاثة وأربعين عامًا من أحداث المسرحية، وأطول جزء من عمر البطل، شبابه وتعلمه وبدء طريق تحقيق أهدافه. هذه الفترة فـي حيـاة جيلبـرت، إلـى جانـب سلوكه فـي شـبابه، تضـفي علـى حبكـة المسـرحية روحًـا كانـت تنتمـي إلـى أدب

الصعاليك، الجنس الأدبي الذي تميز به العصر الذهبي للأدب الإسباني تحت تأثير عربي.

هذا البطل الطموح يصل إلى النضج في الفصل الثاني، وفيه يعود إلى نقطة البداية، من منطلق طموحاته وأطماعه، لتحقيق هدفه: الطلسم الذي سيجعله يصل إلى المجد. لا يهمه كيفية الوصول إلى هذا الهدف، بل الحصول عليه بأي ثمن وسبيل. لقد لجأ إلى إغراء وخداع سارة، ابنة الحاخام اليهودي الذي يحتفظ بالمخطوط الذي يتضمن سر هذا الطلسم. وبهذه الطريقة يحقق هدفه، ويحصل على ما يعدّه حاملاً للمعرفة الشيطانية. بعد الاستيلاء على المخطوط يعود للقاء الفيلسوف ابن مسرة، وأمامه يعترف بالدوافع الحقيقة التي تقف وراء بحثه الحثيث عن الطلسم.

في نهاية المشهد الخامس من الفصل الثاني نجد أن حضور ابن مسرة يمثل ضياع الموضوعية في الزمان والمكان، ويعني الحضور المسرحي للجانب الآخر من فكره، الجانب المتهم لهذا الشخص المزدوج الذي أسفر عنه الطمع. ويشهد القارئ أو المتلقي، منذ اللحظة التي يتحد فيها الاثنان على الخشبة، القلق الذي يلف الأفعال والضمير المذنب الذي يصارع من أجل الفوز برأس الشيطان. في هذا السياق يعرج على الحضارات القديمة في حوض البحر المتوسط، وعلى وجه الخصوص الحضارة المصرية القديمة من خلال الإله توت في حوار بين جيلبرت وابن مسرة[١٢].

ويحمل ظهور ابن مسرة على التفكير أنه بسبب المفارقة التاريخية التي يعنيها ظهوره، وهو يتحادث مع البطل الطموح، مع الأخذ في الحسبان أنه مات منذ أمد "وأكثر من هذا، أنه إذا كان على

---

(12) أذكر أن المؤلف عندما حضر لتكريمه في مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي، في دورته الخامسة عشرة في سبتمبر ٢٠٠٣، اعترف لي بتأثره الكبير عند تسلمه تمثال الإله توت من وزير الثقافة، نظرًا إلى ما يمثله هذه.الإله المصري شخصيًا للكاتب. لقد ظل يتذكر مصر معربا لي في أكثر من مناسبة عن رغبته في العودة إليها. (المترجم)

قيد الحياة لكان عمره نحو مائة عام" [١٣]. في الفصل الثالث نشاهد البطل غارقًا في فعل السلطة. ومع ذلك يدرك، مع الوقت، أخطاء طريقته في الأداء، ويحمله ضميره على إدراك هذه الأخطاء، وهذا الأمر يفصح عنه مع ظهور روحه التوءم في نهاية المشهد الأول ". وعندما يهم جيلبرت بالرحيل، يكشف الضوء عن ابن مسرّة، فيظلان وجهاً لوجهة ويحل الظلام" [١٤].

ويحدث هذا الأمر عندما يسمح كريستنزيو للبابا الألماني كليمنت الخامس بالهرب من روما، وكان قد فرضه أوتون الثالث، ليحتل مكانه يوحنا السادس عشر. في تلك الأثناء يوصي جيلبرت الإمبراطور بردع المنشقين بقوة. وتعود روحه التوءم إلى الظهور لتلومه على قيام أوتون الثالث بضرب الأعداء من خلال تطبيق عقوبات قوية بموافقة جيلبرت، وهو الموقف الذي حمله على احتلال منصب رئيس أساقفة رافينا: "يخرج أوتون الثالث وغريغوروس الخامس. ويهم بالخروج جيلبرت أيضاً، إلا أن ابن مسرة يوقفه بجذبه من كتفه. ابن مسرة: هل هذه هي الأحجار التي تريد أن تقيم عليها مجتمعك الروحي؟"[١٥].

غير أن هذا التعايش بين أكبر ثقافتين في الأندلس نجده يتراجع أمام الصراع بينهما في نطاق آخر، ضمن أحداث تاريخية معروفة، وهو ما يكشف عنه حوار بين جيليبرت، أو أوتون الثالث، وهو في قمة السلطة المسيحية، وروحه التوءم، الفيلسوف ابن مسرة:

أوتون الثالث: غزو القدس؟
جيليبرت: نعم، إنه غزو القدس.
ابن مسرة: أترفعون الروح بمحاربة المسلمين؟

---

(13) Campos García, Jesús, *La Cabeza del Diablo*. P.230.
(14) Ibíd., p. 235.
(15) Ibíd., p. 242.

جيلبرت: لقد قام المنصور بهذا الأمر. فقد أدى سلبه لسانتياغو إلى تعزيز سلطته وحماسة المؤمنين.

ابن مسرة: . هل دم المسيحيين رفع درجة روحانية الإسلام؟

جيلبرت: كنت في قرطبة عندما علقوا في المسجد أجراس كومبوستيلا وشاهدت كيف أن الشعب كان يتلاحم مع قائده وربه(١٦).

إن توقه إلى السلطة طموحه السياسي لا يتوقفان. فبعد أن أصبح رئيس أساقفة طيّر خبر تعيينه بابا بعد أن مات غريغوريوس مسموماً. وعليه فإن آلة السلطة يتم إعمالها والبطل غير قادر على التوقف. إنه ينتمي إلى سلالة الأبطال التاريخيين الأقوياء، وما يبديه هو أن السلطة تصيب بالعدوى، ويبحث عن أعذار يمكن أن تبرر أفعاله.

والظهور المستمر لابن مسرة في المشهد الرابع من الفصل الثالث والأخير، خارج سياقه الأندلسي، يعطي المسرحية شكلاً دراميًا شائقًا. وعليه نعيش تداخل الحاضر والماضي والمستقبل، ويلجأ المؤلف إلى لعبة الغموض من خلال حضور هذا الفيلسوف العربي، الضمير الحي والمصلح الذي يلفت ضمير جيلبرت إلى تصرفاته الدنيئة.

وقد تمكن هذا الضمير الحي في النهاية من إيقاظ خيط تكفيري داخل البطل، فيترك كل شيء ليتبع نصائح ابن مسرة، ويتخلى جيلبرت-سيلفستر الثاني عن مواصلة طريقه، طريق العمل المفسد للسلطة. وفي النهاية يعترف بجرمه ويتخلى عن الحياة

(16) Ibid., p. 244.

للتكفير عن ذنوبه في المشهد الحلمي حيث يقبل ضميره المسئولية، ويسمح للمتلقي بتأمل موته ندمًا، فيخرج من الفاتيكان نهائيًا، في نهاية المسرحية.

د.خالد سالم

* تكرم المؤلف خيسوس كامبوس غارثيا بكتابة مقدمة مقتضبة، مكثفة، لهذه الترجمة لمسرحيته. وقد ترجمتها، بعد هذه السطور تم نوردها كما وافانا بها في الأصل الإسباني. (المترجم)

مقدمة

إن الأصولية والليبرالية خطا فكر، طريقتان لفهم الواقع، لكنهما موقفان، بشكل أو بآخر، كانا حاضرين في كل مجتمع، بعيداً عن النظم السياسية، الاقتصادية أو الدينية التي تحكمه. في كل مجموعة من الأفراد، مهما كان عددها قليلاً، يسهل الكشف عن هذه الثنائية، وكذلك، إذا شددنا التحليل، يمكننا أن ندرك كيف أن كل شخص يمكنه، طوال حياته وحسب الظروف، الأداء انطلاقاً من مواقف متقابلة على حد سواء.

جيلبرت دي أوريلاك يعيش في درجة عالية من هذه الثنائية في لحظة تاريخية غاية التعقيد. فصراع الحضارات الذي كان قائماً في الأندلس، وكانت نتيجته الحروب الدينية، أدى إلى انتقال المعارف العلمية والفلسفية. لا شيء حينها ولا الآن أبيض ولا أسود تماماً حسب ما يريدون أن يجعلونا نعتقد أحياناً. وهذا هو ما فهمته انطلاقاً من موقعي كمواطن أوروبي يعيش في فجر القرن الحادي والعشرين (ألف سنة بعد وقوع هذه الأحداث). آمل وأرغب في تسهم قراءة نص مسرحية "رأس الشيطان" –النص الدرامي الذي يصور هذه الشخصية المثيرة والذي تُرجم إلى العربية بفضل الدكتور خالد سالم- في جلاء الكثير من القضايا التي تهمنا، تهم حضارتين متاخمتين وفي احتكاك مستمر. لا شيء يحقق أهداف هذه المسرحية التي بين أيديكم والاستفادة منه أكثر من حملنا على التفاهم المشترك.

خيسوس غارثيا كامبوس

INTROITO

El integrismo y el liberalismo son dos líneas de pensamiento, dos modos de entender la realidad, pero, sobre todo, dos actitudes que, en mayor o menor medida, siempre han estado presentes en toda sociedad, con independencia de los sistemas políticos, económicos o religiosos que la rigieran. Dentro de cada grupo de personas, por muy reducido que este sea, es fácil detectar esta bipolaridad, e incluso, si extremamos el análisis, podemos advertir cómo cada persona, a lo largo de su vida, puede, en según qué circunstancias, actuar indistintamente desde posiciones tan opuestas.

Gerberto de Aurillac vive en grado sumo esta bipolaridad en un momento histórico especialmente complejo. El choque de civilizaciones que estaba teniendo lugar en al-Andalus, y cuya consecuencia más visible fue la guerra de religiones, propició igualmente el trasvase de saberes científicos y filosóficos. Nada es, ni entonces ni ahora, tan blanco ni negro como con frecuencia se nos quiere hacer creer. Yo así lo entendí desde mi posición de

ciudadano europeo en los albores del siglo XXI (1000 años después de que ocurrieran estos hechos). Y espero y deseo que la lectura de *La Cabeza del Diablo* –texto dramático en el que se refleja la historia de tan controvertido personaje y que ahora ustedes podrán conocer gracias a la traducción al árabe del profesor Khaled Salem– contribuya a clarificar muchas de las cuestiones que nos conciernen, en tanto que culturas limítrofes y en continua fricción. Que, en definitiva, nada colmaría tanto los fines de este libro como ser de utilidad, aunque sea mínimamente, para nuestro mutuo entendimiento.

Jesús Campos García

تدور أحداث هذه المسرحية حول حكاية جيلبرت دو أورلياك: المستعرب، والرياضي، والميكانيكي، والمخترع، وفيلسوف مدرسة رانس Reims، التي شغل فيها العرش البابوي في نهاية الألفية تحت اسم سيلفستر الثاني، وقيل عنه دون أساس من الصحة إنه وصل إلى امتلاك:

رأس الشيطان

* تدور الأحداث بين قرطبة وروما ورانس ورافينا وباترنو والقدس (؟) منذ ألف عام فقط.

إلى بيرتا، لكل ما أسدته إليَّ.

الشخوص

١. رأس متكلم
٢. يوسف
٣. جيلبرت دو أورلياك (سيلفستر الثاني، البابا)
٤. ابن أبي عامر (المنصور)
٥. عامل نقل.
٦. رامون بورّيل كونت برشلونة
٧. يوحنا الثالث عشر، البابا
٨. داميانو
٩. أوتون الثاني (الأحمر)
١٠. رئيس أساقفة سان Sans
١١. رئيس أساقفة طور Tours
١٢. رئيس أساقفة بورج Bourges
١٣. أرياردو
١٤. كبير الخدم.
١٥. ابن مسرة
١٦. سارة
١٧. أوتون الثالث
١٨. مستشار
١٩. غريغوريوس الخامس، البابا
٢٠. يوحنا السادس عشر، مضاد للبابا
٢١. توسكولو
٢٢. كريسشنزيو
٢٣. زوجة كريستنزيو
٢٤. عبد
٢٥. سيدة
٢٦. كاردينال

هذا بالإضافة إلى سيدات وعمال نقل وكهنة ونبلاء ورجال علم وعبيد ورهبان ومسلحين وجلادين وكرادلة ووصفاء.

الفصل الأول

الفصل الأول

المشهد الأول

(قرطبة عام ٩٦٠ م/٣٤٤هـ)

(حزمة ضوئية مسلطة على الرأس، بها لحية، موضوعًا على صينية معلقة في الهواء، بعدها مباشرةً لسان لهب كبير يخرج من فمه، في حين يصدر خوار يرعد القاعة. بعد الخوار تسمع أصوات قوية غير محددة الهوية.)

(يدخل خشبة المسرح صبية جيلبرت دو أورليلاك وابن أبي عامر ويوسف، في حين يضيء رءوسهم مصباح من القرع.)

رأس: اخدمني وسأخدمك.

(يبدي جيلبرت بعض الخوف، لكنه تغلب على خوفه.)

رأس: اعمل وفقاً لأغراضي وستجاب طلباتك.

(تتحرك الرأس برفق إلى اليمين وإلى اليسار.)

رأس: اخدمني وسأخدمك.

(تصفر الريح. ينعق غراب.)

رأس: اهتم برغباتي وسألبي كل ما تطلب.

(برق ورعد يهزان خشبة المسرح).

يوسف: مدهش، أليس كذلك؟

جيلبرت: إنني أرى أنه مثير للفضول.

رأس: اخدمني وسأخدمك.

(نظرته الخضراء (ليزر) تخترق الظلام.)

رأس: قدم لي أموالك وقبل خمسة عشر عاماً سأضاعف ثروتك خمس مرات.

(يعود الرأس إلى الخوار ويخرج لسان لهب آخر من فمه، دون أن يبدي جيلبرت أدنى حركة.)

جيلبرت: هل هو كل ما يعرف؟

يوسف: كذلك يقوم بتعاويذ يثني بها الإرادة.

جيلبرت: ليس كثيرًا.

يوسف: ويؤدي إلى تقيح الشراب الطبي عبر الفتحات التي تسببها سهام الحب.

(تصفر الريح.)

رأس: اخدمني وسأخدمك.

(نعيق غراب.)

رأس: اخضع لقوتي وسأجعلك الأكثر قوةً بين البشر.

برق ورعد.

جيلبرت: (إلى يوسف). أوقفوا هذه القريحة الناطقة، وأوقفوا الخدع.

ابن أبي عامر: ألا يبدو لكم خارقًا للطبيعة؟

جيلبرت: (**مخذولاً**) كنت أنتظر سحرًا أقل سخرية.

(بعد إشارة من يوسف تتوقف الرأس، تتوقف الخدع والتأثيرات وتضاء خشبة المسرح.)

يوسف: لن تجدوا شيئًا كهذا في حوض الوادي الكبير كله.

جيلبرت: لا يمكن أن يكون هذا الرأس الذي يسكن فيه علم الشر. وأشك في أن تظاهرًا بهذا الشكل يمكن أن يقنع أحدًا ليس مقتنعًا مسبقًا.

ابن أبي عامر: إن قرطبة مليئة بالرءوس الناطقة، إلا أنه ليس هناك رأس يصل إلى هذا الكمال.

جيلبرت: من ناحيتي يمكنك فك الاختراع. لا أبحث عن حيلة اختـراع بشـري، ولا اختراعـات تتحـرك بواسـطة زنبـرك وسوسـت، فهـذه الحيلـة لا علاقـة لهـا بالمعرفة، مهما أحيلت إلى معارف قديمة، مثلها فـي القدم مثل حاجة الشحاذين إلى الاستماع إلى وعد ثروتهم.

يوسف: (متوجهـاً إلـى الـداخل.) لقـد سـمعتم. يمكـنكم أخـذ اللوازم.

(فـي شـبه الظـل، بـين السـتائر، تظهـر رءوس ملتحية لعمال النقل، وهناك تشابه جلي بينها وبين الرأس المذبوح.)

ناقل: ألم يلق رضاكم؟

جيلبرت: آه، نعم! إنه لشيء عظيم، ولكنه ليس ما أبحث عنه.

(يبدأ عمـال النقـل علـى أثـر إشـارة يوسـف بفـك الاختراع.)

ابن أبي عامر: إن رجـلاً متفقـاً مثلـك يمكنـه مـن خـلال هـذه الاختراعات أن يكسب قوته.

جيلبرت: سحرة يشبعون من جوع واعدين الجوعى بالثروة، تجدهم في أكيتان.

يوسف: إلا أنّ لا أحد يشبه بافوميت[1].

جيلبرت: لم آتِ الأندلس لأعود محملاً بتمثال متحرك.

يوسف: كما تشاءون، إلا أنه ولا حتى في سورية ـ حيث ولد رأس الشر، حسب ما يُحكى ـ لن تجدوا شيئاً أحسن.

جيلبرت: كيف حسب ما يحكون؟! لقد حكيته أنا لك.

يوسف: **(فوجئ متلبساً).** حسناً، نعم.

ابن أبي عامر: ما هذه الحكاية؟

---

[1] Bafomet يقول المؤلف إنه رأس ناطق كان منتشرا في الأندلس.

يوسف: على ما يبدو فإنه موت اغتصبوه في قبره وولده في أحشائه ...

جيلبرت: **(قلق بسبب وجود عمال النقل.)** ربما تكون مجرد مجاز، ليس مناسبًا نشره بوفرة. (إلى يوسف.) إذن دعوكم من الحكايات رحلوا الكيس.

يوسف: **(ممسكًا به.)** الكيس؟

جيلبرت: نعم، هيا ضعوا هنا الأربعين مرابطاً [٢] التي دفعتها مقدمًا للاشيء.

يوسف: كيف مقابل لا شيء؟ لقد نفذت ما يخصني من الاتفاق.

جيلبرت: **(يخرج خنجراً من غمده بسهولة، وفي حالة غضب يدفعه بالخنجر في كرشه.)** لا تلتبسوا في الأمر معي.

يوسف: لا تلعبوا بالصلب، فأنا ذو جلد طري.

عامل نقل: **(يسانده مساعدوه.)** هيا، ما الخطب؟

ابن أبي عامر: اهدأ، إنه مزاح صديق.

عامل النقل: **(متوجهًا إلى يوسف.)** أصحيح ما يقوله؟

يوسف: **(ليس معه كل قطع العملة.)** هذا من الأجدر لي.

ابن أبي عامر: (إلى عمال النقل.) استمروا في عملكم، وأنا سأتوسط في هذا النزاع. (إلى جيلبرت.) وأنت، أعد هذا الخنجر إلى غمده، فقد يموت من الخوف ونتحمل المسئولية.

(يواصل عمال النقل لملمة الأمتعة، وهم يراقبون ما يحدث.)

جيلبرت: (يغمد خنجره.) فليُثبت رأس الشيطان ما وعد به.

ابن أبي عامر: هل وعدت بهذا الشيء؟

يوسف: كنت أتكلم عن إنسان آلي. ولا أدري ماذا فهم من ذلك.

---

[2] مرابط maravedí عملة قديم صكها المرابطون في الأندلس. (المترجم).

جيلبرت: ربما أخطأت في اجتهادي، لكنك شجعتني على الخطأ.

ابن أبي عامر: (إلى جيلبرت.) وإذا لم يكن اختراعًا ناطقًا، فعن أي رأس تبحث؟

جيلبرت: (**محاولاً ألا يسمعه العمال.**) رأس الشيطان. الأصلي، الذي وضع في بطن الموت مع مني الشر.

ابن أبي عامر: يا إلهي! ليس إصرارًا سيئًا.

يوسف: هل كنت تعتقد أنني لو كنت أعرف طريقة للعثور على هذه المعجزة لاستمررت في عملي كتاجر مع أنني في هذه الحالة يمكنني أن أملك العالم؟

جيلبرت: ما ثمن منحك مثل هذه الثروة إن لم يكن هكذا؟

يوسف: أتتحدث عن ثروة؟ فلا تكاد تغطي النفقات.

ابن أبي عامر: لا أدري عن أية نفقات تتكلم إذا كنت قد جئت مشيًا من طرّاغونة.[3]

يوسف: لم يعد أمامك سوى أن تقف إلى جانبه. لقد قدمت له إذن المرور، ولم يكن في استطاعته أن أبدًا عبور الثغور لو لم يكن في قافلتي. (إلى جيلبرت.) كما أنك صعدت إلى العربات كلما أردت.

ابن أبي عامر: هل هذا صحيح؟

جيبلرت: هذه حقيقة لم أنكرها قط (**يرفع من صوته كي يسمعه العمال**) مثلما تسليت مع الصقلبيات المرات التي أردت.

يوسف: (**بصوت خفيض.**) هل لك أن تصمت؟ ألا ترى أنك تبحث عن ضياعي؟

بن أبي عامر: هل تسليت مع محظيات الخليفة؟

---

(3) Tarragona : مدينة فيها ميناء شمال شرق إسبانيا في إقليم قطالونية، يطل على البحر المتوسط. وهي مدينة عتيقة فيها آثار كثيرة وجامعة عمالية، كانت من حواضر الأندلس المشهورة (المترجم.)

يوسف: لا، إذا أردتم أن يصلبوني.

(بعد أن انتهي العمال من جمع الأشياء أخذوا ينصتون باهتمام.)

يوسف: وأنتم إذا كنتم قد انتهيتم من عملكم فيمكنكم أن تتصرفوا حالاً.

عامل: إذا شئتم يمكننا الانتظار.

ابن أبي عامر: انصرفوا في هدوء، سأتولى أنا مهمة الحيلولة دون الوصول إلى إسالة الدماء.

يوسف: وإن كان من الأفضل ألا تتصرفوا تماماً، إذ قد تكون هناك حاجة إلى مساعدتكم.

عامل: إذن سنبقى راصدين للدرب لما قد يحدث.

(يخرج العمال حاملين معهم أدوات الاختراع.)

ابن أبي عامر: (إلى جيلبرت.) هل تسليت حقًا؟ (إلى يوسف.) لم تقم معي بهذا التصرف قط.

يوسف: كما ترون فإنه تذوقهن قبل الخليفة ومع ذلك فإنه يشكو.

جيلبرت: إذا انتشر الخبر فإن منْ يجعلونك غنيًا سيقتلونك.

يوسف: فلأذهب إلى الجحيم إذا لم يكنٌ قد وصلن سليمات مثلما تسلمتهن.

جيلبرت: كنّ مخيطات بشكل جيد.

يوسف: عذراوات أو مرتوقات، بحالتهن مثلما خرجن من طرّاغونة، وهكذا سلمتهن إلى خصيان الرُصافة (إلى جيلبرت.) إلا إذا ما كنت قد خنت ثقتي بك.

جيلبرت: لقد مارست اللواط معهن فقط، حسب ما اتفقنا عليه.

ابن أبي عامر: إذا كان الأمر هكذا، فخِط شفتيك، مثلما قامت الأم الطيبة بخياطة شفاه هؤلاء الفتيات، و إلا فإن الرأس الناطق الذي سنجده في السوق المرة القادمة ستكون رأس يوسف ...بعد ذبحه (يضحكون.)

يوسف: نعم، اضحكوا.

جيلبرت: لن تكون هناك حاجة إلى أن يطالب أحد بهذا. فحتى الأكثر بلاهة عندما يراهن وهن يتحركن سيتعرف حالتهن.

يوسف: لا أدري ما السوء في أن تروا أنهن شهوانيات. فلهذا الأمر يحملونهن لنا إلى قطالونية، كي نعلمهن الإغراء.

ابن أبي عامر: **(متهكمًا.)** كنت أعتقد أن السبب كان تعلم اللغة، وليس لتدريبهن على استخدام اللسان. [٤]

يوسف: هذا أيضًا، في مدرسة المترجمين **(مشيرًا إلى جيلبرت)** حيث تعرفت إليه. ولكن على وجه الخصوص كي يتدربن على فنون الحريم على أيدي أساتذنا في طرّاغونة.

جيلبرت: إنها وظيفة جيدة لراهب مارق. وأحسن من تعريب لغتهم الصقلبية كان يروقني أن أضع درجة أستاذية شهوانية، أو تدريسهن فنونًا جنسية.

ابن أبي عامر: فلنقم معهداً على شاطئي نهر البيتيس. [٥]

يوسف: توقف! لا تخلط الأمور، إذ لا يُدَرّبنَ على البغاء، فمثل هذه الممارسات يعني خسارة الجنة.

جيلبرت: ليس هناك جنة أفضل لي من أن أكون ثعلباً يحمي دجاجات، والأكثر لذة من هذا تعليمهن هذه الممارسات.

ابن أبي عامر: لا يجرؤ أحد على تصنيفك رجل كنيسة بعد سماعك تتحدث بهذه الطريقة.

جيلبرت: كنت راهباً بندكتينياً، ولكن هذا كان قبل ستة أشهر. ومن الأفضل ألا يُلاحَظ هذا، فهذه الصفة لا تتناسب

---

[4] يستخدم المؤلف كلمتي idioma و lengua، وكلتاهما يعنيان لغة، غير أن الثانية تعني أيضاً عضو التذوق، اللسان. (المترجم.)

[5] Betis الاسم القديم للنهر قبل التسمية العربية له بالوادي الكبير، Guadalquivir ، في إقليم الأندلس جنوبي إسبانيا (المترجم.)

مع أغراضي. **(إلى يوسف.)** فلنعد إلى ما هو أهم. افتحوا الكيس إذن.

يوسف: ألا تزال على موقفك؟ **(إلى ابن أبي عامر.)** توسط أنت ولننتهْ من هذه المشكلة. إنني حزين لتقديم الخدمة إليه في مقابل ضئيل.

ابن أبي عامر: هل تطلب إليّ أن أدلي برأيي؟

يوسف: عليك أن تصدر حكمًا في القضية إذا رضي.

ابن أبي عامر: لا يمكنني أن أصدر حكماً قبل القيام ببعض التحريات.

يوسف: إنك لفقيه شجاع! لقد أحسنت في فتح دكان أقمشة وزركش، أفضل من عملك قاضيًا...

ابن أبي عامر: **(مازحاً.)** يجب أن أفحص الصقلبيات قبل أن أنطق بالحكم.

(ضحكات مشتركة.)

جيلبرت: هل حقيقي أنك درست الفقه؟

ابن أبي عامر: والأدب. ولكن معرفة القليل يكفي إذا لم يكن هناك شفعاء. لهذا أقمت بجوار قصر الخليفة، كي أدخل البلاط، وبهذه الطريقة تمكنت من أداء عمل للمكتبة، كناسخ.

يوسف: لقد أديت للأميرة صبح، زوج الحكم، أكثر من عمل، مع أنني لم أكن أعرف أن مثل هذه الأمور يطلق عليها نسخًا.

ابن أبي عامر: استهزئوا إذا أردتم، ولكن سترون كيف يعينونني قاضياً في إحدى القرى. فليكن في إشبيلية إذ أنني لا أريد أن أبتعد عن ضفاف نهر الوادي الكبير.

جيلبرت: إذا كان الأمر هكذا فإنك أفضل قاضٍ في نزاعنا.

ابن أبي عامر: (إلى يوسف.) هل ستنصاع لحكمي؟

يوسف: **(يهز كتفيه.)** إذا كان هذا سيحسم القضية...

ابن أبي عامر: (**متوجهاً إليهما.**) في هذه الحالة يجب أن تعطيانني ديناراً. فليس حسناً للفقه أن يؤدي عمله دون الاتفاق على الأتعاب مسبقاً.

يوسف: أترى؟ إن إصرارك على تقاضي الأتعاب يثبت أنك رجل قانون. (**يقدم له العملة على مضض.**)

جيلبرت: (**يعطي له عملته أيضاً.**) حسن، وما الحكم إذن؟

ابن أبي عامر: بعد سماع الطرفين -أظن أنكما ستكونان سعيدين- وأخذًا في الحسبان أنه أحضرك على عاصمة الخلافة، فإن الرأس الذي أظهره لك ليس شيطانياً، إلا إذا كان قد تعرض للتلاعب على أيدي بشر مساكين.

يوسف: لا داعي للحكم!

ابن أبي عامر: لهذا أحكم بأن يعيد إليك ثلاثين مرابطاً (**إلى يوسف.**)، والباقي مقابل جواز المرور والنفقات المترتبة. (**إلى جيلبرت.**) والآن إذا امتلكت يوماً ما هذا الرأس العجيب، فعليك أن تعود إلى الأندلس كي تشركنا في ثروتك.

يوسف: والصقلبيات؟ ألا تقدر بشيء التسلية بنساء بيضاوات ومعطرات؟

ابن أبي عامر: آه! هذا نعم... إذا كنت تريد أن يدفع ثمنًا للمتعة، فاشكه إلى الخليفة، فإن هذا من حقه نظراً إلى أنهن يخصصنه.

يوسف: (**إلى بن أبي عامر.**) هل أنت صديق؟ (**وهو يسلم الكيس إلى جيلبرت على مضض.**)

ابن أبي عامر: إن سمعة قاضٍ تكمن في حياده، وعليه فإنني أطمح في تولي هيئة قضاء الخلافة، وليس في صالحي الدخول في حل مثل هذا النوع من المشكلات التافهة.

جيلبرت: من ناحيتي فإنني أمتثل للحكم مع أنني كنت أطالب بأربعين. (إلى يوسف.) افرح فعندما أجد الرأس ـ وهو ما رأيته في حلم- ستؤدي هذه القضية إلى زيادة ثروتك.

يوسف: وكم لن تزيد ثروتي إذا صدقت الفوائد التي يتم الحصول عليها في الأحلام؟ إنني أعيش من الأعمال وليس من الأوهام.

جيلبرت: إنني لا أتكلم عن أضغاث أحلام، بل عن حلم صوفي نتيجة شراب سحري أتت به إلى الدير راهبة عند عودتها من الأراضي المقدسة. في هذا الشراب ظهر لي الشيطان على شكل وحش يتحول إلى رجل رأسه رأس طائر. وبهذه الطريقة أنبأني أنني سوف أسيطر على العالم وأصل إلى الخلود بشرط أن أقيم قداسًا في القدس. وكما تفهم فإن هذا الشرط لا يمثل مشكلةً لي. المهم هو أنه من أجل تحقيق ذلك عليَ أن أجد رأسه وأفكر فيه. وأنا مصرٌ على ذلك.

ابن أبي عامر: (إلى يوسف) تقول إنني مجنون لأنني أحلم بتدريس العدالة في المسجد الجامع. إنه رجل لا يضع حدوداً لدأبه.

يوسف: (إلى جيلبرت.) إذا كان الأمر هكذا، فعندما يحقق ثروتك ارجع لتعويضي، سأكون هنا في عملي لإحضار صقلبيات من طرّاغونة، فنحن موردون لقصور الخلافة منذ زمن عبد الرحمن، لهذا لن يكون صعباً العثور علينا.

ابن أبي عامر: إلى أين ستتوجه الآن بعد أن فقدت أثر بافوميه؟

جيلبرت: سأعود إلى مدينة برشلونة بحثًا عن النجاح فيها. لي أصدقاء سيدخلونني إلى مدرسة المترجمين، إذ يناسبني دخول مكتبتها، إذ قد أحصل على دليل.

فبهذه الطريقة، بينما كنت أترجم بعض الكتب، حصلت على خبر عن الرأس.

ابن أبي عامر: (إلى جيلبرت.) عليك أن تبقى في قرطبة حتى حلول الربيع. إذا أردت يمكنني أن أقدمك في مكتبة القصر. كما أن المسامرات والاجتماعات السرية التي تقام هنا كثيرة، وأذن مصغية مثل أذنك ستخرج بفائدة مما يقال فيها.

يوسف: لا تعطله، فقد يصل متأخرًا عن موعده مع الشيطان.

جيلبرت: لا عليك، سأصل في موعدي، إذا ما تكرم وناداني. وحتى تصل هذه اللحظة فلننزل إلى الضفة بحثًا عن صحبة، ولنفعل شيئًا ممنوعًا كي نكسب وده.

(ضحكات وظلام.)

المشهد الثاني

روما ٩٧٠ م.

(رامون بورّيل كونت برشلونة وجيلبرت دي أوريلاك حاملاً كيس أمتعة شخصية يتمشيان في رواق كنيسة ليتران.)

بورّيل: آمل ألا أندم.

جيلبرت: لن أقول شيئاً لا أفكر فيه.

بورّيل: إن هذا على وجه التحديد ما يقلقني. وجودك في روما يمكن أن يكون ذا منفعة لاستقلال الكونتية. أو على الأقل، هذا هو ما يفكر فيه معلمك، وإن كنت أرى أنه سلاح ذو حدين، فإذا كنت مؤهلاً للدبلوماسية، فكل شيء تتخلى عنه، متخليًا عن المنطق، عندما تهذي أو تتفوه بأفكار تخص عرافاً أكثر منه رجل علم.

جيلبرت: سأكون مجاملاً وسألجأ إلى الاحتيال، إذا ما كان هذا سيفتح أمامي مكتبة الفاتيكان.

بورّيل: إنهم يحسبون لك حسابًا، فالمدينة هنا أكثر صرامة.

جيلبرت: هل روما صارمة؟

بورّيل: ليست صارمة في العادات، فهي متسامحة جداً، ولكنها هكذا في التحالفات. وعليه فإن رأيًا غير لائق يمكن أن يفتح لك باب القبر ، ففي هذه المدينة المقدسة يُسقى السم أكثر من النبيذ في قطالونية.

جيلبرت: سأحتاط وسأحمل معي كثيرًا من الترياق فربما يخونني اللسان.

بورّيل: هل أحضرت الساعة؟
جيلبرت: نعم، هنا في كيس أمتعتي الشخصية.
بورّيل: (**مستعجلاً.**) لا تنس إهداءها إليه.
جيلبرت: ألم يكن من الأولى أن أكون أنا العصبي؟
(يدخل يوحنا الثالث عشر يصاحبه رجل دين على مسافة منه.)
بورّيل: (**منحنيًا.**) صاحب القداسة.
خوان الثالث عشر: إذنْ، هذا جيلبرت دي أوريلياك.
جيلبرت: صاحب القداسة.
يوحنا الثالث عشر: لقد كلموني عنك بإطراء.
جيلبرت: ماذا كان لي أن أنتظر من أستاذي وحاميّ؟
يوحنا الثالث عشر: ومع ذلك فإنك لست قطالونيا. أم أنني أخطأت؟
جيلبرت: أنا فرنسي.
بورّيل: (**بتفخيم.**) سليل أسرة كونت أكيتان.
جيلبرت: وإن كنت من الفرع غير الشرعي.
بورّيل: (**متضايقًا من التعقيب.**) وهو ضليع في الموسيقى والرياضيات.
خوان الثالث عشر: (**سعيدًا بالتعليق.**) هل حقيقي أنك سافرت إلى الأندلس لتتعلم الأرقام العربية؟
جيلبرت: إلى قرطبة. لكنني لم أتعلم أرقامهم هناك، بل في فيش وريبول. صاحب القداسة يعرف أستاذي.
بورّيل: بفضل معارفه هذه تمكن من اختراع ماكينة قادرة على قياس الزمن دون حاجة إلى الرمل. (**يستنهض جيلبرت**) هيا بالساعة!
جيلبرت: آه، نعم! (**يبدأ في فك الكيس**)
خوان الثالث عشر: ساعة لا تحتاج إلى الرمل؟
بورّيل: كان يريد أن يهديها إليك.

جيلبرت: إنها تعمل بمقتضى هذه الأثقال الموازنة. (يشغلها) البندول يدوّر العجلة المسننة، وهكذا تشير العقارب إلى الساعات.

بوريّل: مدهشة، أليس كذلك؟

جيلبرت: بسيطة جداً.

يوحنا الثالث عشر: **(بعد توقف طويل لا صوت خلاله سوى دقات الساعة)** عجيبة. **(بعد وقفة جديدة)** بينما يشاهدها الإنسان تتذبذب يشعر كيف أن الحياة تهرب منه وئيدةً. والساعات الرملية، على العكس، تسيل كالماء. ستكون ذات فائدة كبيرة لي، فما بقي لي من الزمن قليل، وسماع هذه الآلة ينبهني لقصره.

يوحنا الثالث عشر يشير إلى رجل الدين الذي يقترب بدوره ليأخذ الساعة.

بوريّل: آسف على أن هدية بسيطة كهذه أحزنت صاحب القداسةُ.

يوحنا الثالث عشر: **(بشوشًا إلى جيلبرت، متجاهلاً بوريّل)** وهل حقيقي ما يقولونه بأنك ذهبت إلى الأندلس بحثًا عن رأس الشيطان؟

بوريّل: أكاذيب!

جيلبرت: **(مزحًا.)** إنها أشياء شبابية.

يوحنا الثالث عشر: بعد رؤيتك هنا أمامي إنني أجرؤ على القول إنك لن تجده.

بوريّل: (مضطرباً.) هذا أمر يتعلق بالشباب.

جيلبرت: لا. مع أنني رأيت اختراعات كثيرة، آلات مصنوعة بكثير من الخبرة على أيدي العرب، فهم أهل علوم كثيرة، وهو ما يتضح في تصميم إنسان آلي وعلوم أخرى.

بورّيل: نعم، لحسن الحظ لم يعثر عليه. إلا أن بعض النمامين يقولون إنه ذهب للبحث عن هذا الكائن الملغز.

يوحنا الثالث عشر: فقط من جدّ وجد، حتى وإن لم يجد دائمًا ما كان يبحث عنه.

بورّيل: كما أنه يتقن اللغات السلافية.

يوحنا الثالث عشر: إنني على علم بكيفية تعلمه هذه اللغات.

بورّيل: آه!

يوحنا الثالث عشر: احكِ لي عن الأندلس، ماذا شد انتباهك؟

جيلبرت: وحدتها.

يوحنا الثالث عشر: وحدتها؟

جيلبرت: نعم، لا أقصد وحدة أراضيها، بل أعني علم السياسة الذي استطاع الخلفاء بموجبه ربط مصالحهم الدينية بمصالح الدولة. الجهود كلها تصب في إرادة واحدة، وهذا يجعل من أي شعب عظيمًا.

بورّيل: أليس هناك منشقون؟

جيلبرت: نعم. هناك أمويون كثيرون غير راضين عن التأثير المتنامي للصقالبة. ومع ذلك لا أتخيل أن يقع اضطراب مثل الذي حدث هنا، في روما، وأسفر عن نفي صاحب القداسة.

يوحنا الثالث عشر: صدقاني كان أقل سوءًا، ففي سان أنجيلو وصلت إلى الخوف على حياتي، لهذا اخترت المنفى نفس راضية.

بورّيل: (غير مرتاح لمسار المحادثة) مؤسف.

يوحنا الثالث عشر: وبهذه الطريقة انتهت محاولة إخضاع نبلاء روما.

جيلبرت: (بحماسة) كان الخطأ في عدم التحرك معًا. نعم، إنني أعرف أن الإمبراطور لم يساندكم. وكان في غاية قاسيًا جدًا مع أتباع كيرسشينزيو. ولكن يجب التصرف بتوافق، فبغير ذلك لن يتم إخماد الفتنة؛ بل ستزداد.

بورّيل: (متفجرًا.) هل ستعطي صاحب القداسة دروسًا؟

جيلبرت: أنا ....

يوحنا الثالث عشر: دعه يستمر، فالحق معه. فبالفعل بعد الاضطرابات أصبح الوضع أسوأ عما كان عليه عندما تولى البابا مهمة البابوية.

جيلبرت: في أقل من قرن يزيد عدد الباباوات والباباوات المختارين بطريقة غير شرعية على الثلاثين، وأكثر من ذلك أولئك الذين أعلنوا قداستهم وغير قليلين الذين خُلعوا بالسم. إذن لا بالفتن ولا بالقمع سيوضَع حد لهذه الخيانات.

(يتوقف جيلبرت أمام النظرة الغاضبة لبورّيل، في حين يشجعه يوحنا الثالث عشر على الاستمرار)

جيلبرت: الكنائس المحلية لم تعد تحترم البابوية، وإذا استمرت الحال هكذا، فالوحدة السياسية للمسيحية لن تكون فقط مستحيلة؛ بل إن الكنيسة نفسها تتعرض لخطر التحول إلى إقطاعية.

يوحنا الثالث عشر: ما اقتراحك؟ فأنت لديك اقتراح.

جيلبرت: غزو الأراضي المقدسة.

يوحنا الثالث عشر: لا أرى علاقة.

جيلبرت: يجب القيام بعملية تجمع بين الملوك ورؤساء الأديار، بين رجال الدين والفرسان، بحيث إن الجرمانيين والبورغونيين والنباريين والإيطاليين يجمعون إرادتهم ضد الكفار. هناك خطران يحيقان بالمسيحية: التهرؤ الداخلي وتقدم الإسلام. وغزو الأراضي المقدسة سيكون ردًا على التهديدين.

يوحنا الثالث عشر: إنها خطة في غاية المخاطرة.

بورّيل: ربما كان من واجبي أن ألفت انتباه صاحب القداسة أن من بين صفاته الكثيرة عدم الاعتدال.

يوحنا الثالث عشر: نعم، إنه مُخاطر. **(وقفة)** عليك أن تعرض هذا على الإمبراطور. **(إلى بورّيل)** لقد أصبت بإحضاره معك. والآن إن لم يكن لديك مانع فإنني أريد أن أتناقش معه على انفراد، فهناك بعض القضايا تهمني بصفته رجل دين.

بورّيل: إذا سمح لي بذلك صاحب القداسة. **(يقوم بانحناء احترام)**

يوحنا الثالث عشر: **(إلى الكاهن)** اصحبه.

(يخرج رامون بورّيل، كونت برشلونة، يليه الكاهن. خوان الثالث عشر وجيلبرت يظلان صامتين للحظة)

يوحنا الثالث عشر: أريد أن أطرح عليك عدة أسئلة، ليس للاعتراف، ولكن في سرية. **(بعد وقفة)** ألا تزال تبحث عن رأس الشيطان؟

جيلبرت: وكذلك عندما لا أبحث عنه.

يوحنا الثالث عشر: هذا ما كنت أعتقده.

جيلبرت: لا يوجد شيء يثير فضولي مثل الكشف عن هذا اللغز. أريد الوصول إلى أصل الشر، فك طلاسمه، فهم طبيعته.

يوحنا الثالث عشر: إنني أفهمك. (وقفة.) سؤال أخير. (وقفة جديدة.) هل تعتقد في وجود الله؟

جيلبرت: (**وقفة طويلة**) يروق لي أن يكون لدي إجابة واضحة ومقتضبة. (**يصمت حزينًا، وبعد وقفة جديدة يضيف مستعجلاً**) لا تفكر، لا، فإنني أتفادى الإجابة، لكنني أعيش في شك لا نهائي (**وقفة**). ربما لا يصل هوسي إلى أن أسباب الشر ليست سوى طريقة للبحث عن الله.

يوحنا الثالث عشر: إنني أفهمك. (**وبعد وقفة**) إنني أفهمك.

(ظلام)

المشهد الثالث

(رانس، ٩٨٠ م.)

(في قاعة اجتماعات مدرسة رانس الخاصة بالكاتدرائية، جيلبرت دي أوريلياك وداميانو، على منبرين، يصران على آرائهما أمام أوتون الثاني "الأحمر". الإمبراطور يتابع الجدال من المنصة، محاطًا ببلاطه: النبلاء ورجال الدين ورجال العلم).

جيلبرت: إن وجود الله لا يمكن أن يعتمد على حاجتنا. فالجوع أو الأوبئة أو الكارثة الأرضية المتوقعة مع نهاية الألفية لا يمكن أن تكون أسباب إيماننا. ففي حين نقترب من الله باللجوء إلى العقل، سنكون مثل هؤلاء السحرة الذين يهددون بغضب آلهة مزيفين من أجل إغراق الشعب في الجهل والخرافة.

داميان: أيعتقد صاحب الوقار[6] أن من الواجب الكشف عن أسرار الإيمان باستخدام النحو؟ هل علينا أن نطلع على مكنون سر كلمة الله بتطبيق القواعد نفسها التي تطبق للحكم على كلمة الإنسان؟

جيلبرت: يتفوق الإنسانِ على المخلوقات كافة بأنه يمتلك القدرة على التفكير. لا تنسَ أنها هبة منحها الله إياها. وإن كنت أرى أن هذه الميزة لا تستحق رأيًا طيبًا من صاحب الوقار.

داميان: ليس لدي شيء ضد هذه المهارة، وإن كنت أرى أن النحو، مثله مثل فنون أخرى، -وبالتالي الرشد- تدريب حاذق، لكن لا أكثر. أعترف أنني من أجل

---

(6) صاحب الوقار su reverencia: لقب يمنح لبعض الرهبان (المترجم).

قضاء الوقت شغلت نفسي بهذه القضايا. ولكنني أعترف بصراحة أنه من أجل التسلية أفضل الشطرنج.

(ضحكات مشتركة)

جيلبرت: لم أكن أعرف هذيان صاحب الوقار مع الجدل. وهل أنت... واقعي، أو ربما يجب أن أصنفكم ضمن "المحدثين"؟

(ضحكات من جديد)

جيلبرت: افعلوا ما تشاءون. لكن ما يهمني هو أن الجدل يمكن اعتباره عملاً دونيًا فقط ما دام أنه غير متعلق بالله ولا يساعد على إنقاذ الروح. وبالنسبة إلى علاقته بعلم اللاهوت، فالمكان الذي يناسبه هو درجة العبد، فإذا كان بطريقة تابعة قادراً على تنظيم ترتيب النقاش، فإنه من الصعب وحده أن يعرّف جوهر ما هو حقيقي.

جيلبرت: هل ينفي صاحب الوقار سلطة أفلاطون وأرسطو؟

داميان: هل تقارنه بما تلقاه الحواريون، وقد تلقوه من الروح القدس؟ إن جسارتك، بإخضاع التعاليم السماوية للعقل، تمثل اعتداءً على سلطة آباء الكنيسة. وأكثر من هذا اسمع جيداً ما أقوله: إنك بهذه المحاولة قد تصل إلى الهرطقة، فأنت تشكك في الحقيقة المنزلة باستخدام العلوم التي أبدعها الملحدون.

جيلبرت: حقًا إن استخدام الجدل يبعدنا عن آباء الكنيسة، إلا أن هذا لا يعني أنه يبعدنا عن الله. فالخالق، وهو العقل الأعلى، خلقنا على شاكلته وصورته، لهذا فإن إخضاع إيماننا لقواعد المنطق لا يتسبب في إبعادنا عن الله فقط، بل يقربنا منه.

داميان: هل اعتبار الله كالعقل الأعلى يتعارض مع كونه القادر على كل شيء؟

جيلبرت: لا أرى تناقضًا في هذا الأمر.

داميان: إذا كان الأمر هكذا، وإذا كان الله القادر على كل شيء يخطر بباله أن يجعل حدثًا تاريخيًا يختفي – كإمبراطورية شارلمان، على سبيل المثال- فكيف تفسر، بموجب عقله الأعلى، اختفاء هذه الحقبة؟ أين مبدؤك الخاص بعدم التناقض؟

جيلبرت: اترك شارلمان النبيل في سلام في قبره في آخن، ولا تسب الله بهذه الخواطر التي لا تليق بغير المهرجين والمشعوذين. وإذا كنت تريد أن نتبادل سهامنا في سباق جدلي فلنقم بذلك حول مسألة أكثر أهمية، فكرت فيها مليًا وأعترف أنني لا أملك جواباً عنها.

داميان: أسمعك.

جيلبرت: إذا قبلنا بأن الخطيئة الأصلية إفساد للروح على يد الشر، فإننا سنواجه هذا البرهان ذا الحدين: إذا كان الله عند مولد كل طفل جديد يخلق روحًا جديدة من اللاشيء فمن الضروري أن يكون الله مسئولاً عن هذا الفساد، أما إذا نفينا هذا فإننا بذلك ننفي أن الله خلق الروح بشكل فردي. هل يمكنك بواسطة إيمانك مساعدتي في التوصل إلى حل لهذه المعضلة؟

(وقفة انتظار، وتبادل نظرات).

داميان: إنك باغتني... دعني أفكر.

أوتون الثاني: (ينهض ليقف ويذهب إلى المجتمعين.) أخشى ألا يكون لدينا وقت لحل هذا المعضلة. علينا أن نرحل غدًا إلى رافينا[7]، وكما تعرفون طرد

---

[7] رافينا Rávena : مدينة إيطالية. (المترجم).

المحامون المدافعون عن الشعب الجديد من روما، وهم الآن يطالبوننا به وبقضايا أخرى. (**يتوجه بشكل أكثر مباشرة إلى جيلبرت**) انتهينا للتو من التوقيع على الهدنة مع ملك فرنسا، وعلينا أن نعد العدة كي نحارب المسلمين. (من جديد إلى الحضور.) كم يروقني الاستمتاع بهذه الأمسيات التي تزداد الروح فيها ثراءً، بدلاً من الاهتمام بأمور الحرب. (يصدر إشارة تنم عن العجز وهو ينزل من المنصة.) شكرًا على براهينكم الباهرة.

داميان: صاحب الجلالة.

أوتون الثاني: نعم؟

داميان: اسمحوا لي، على الأقل، أن أختتم بطرح جملتين تحددان موقفي.

أوتون الثاني: تفضل.

داميان: (**جملة، بعد وقفة.**) الفلاسفة عملاء الشيطان. والنحو من اختراع إبليس.
(**يلاحظ السرور على وجه بعض الحضور والريبة على الباقين.**)

أوتون الثاني: (**إلى جيلبرت والغيظ يتملكه.**) هل تريد تفنيده؟

جيلبرت: (**يبادر بحركة احترام.**) برهنته لا تُدحض.
(تضحك المجموعة التي كانت مرتابة من قبل. داميان يرحل في صحبة مسانديه وهو يشعر بالإهانة. أوتون يتوجه نحو جيلبرت، وهذا الأخير يقابله. باقي الحضور يشكلون مجموعات صغيرة، ويتركون المكان بشكل تدريجي في اتجاهات مختلفة.

أوتون الثاني: إنها نهاية غير موفقة لسهرة شائقة.

جيلبرت: مما لا شك فيه أن داميان قديس. ومع ذلك فإن التسامح ليس بين فضائله الكثيرة.

أوتون: أحيانًا أشك في ذكائه.

جيلبرت: أحيانًا يطرح قضايا بالية ... ومع ذلك فإن المجادلة تحفز خيالي.

أوتون: آسف إذا كنت قد أغضبتك.

جيبلرت: هل بسبب هرائكم؟ لقد تعودت ذلك. (وقفة) في الواقع إن ما يشغلني هي أحداث روما، تصرفات المحامين المدافعين عن الشعب، ملاحقتهم المستمرة للباباوية، عصيانهم لسلطتكم.

أوتون الثالث عشر: وإذا تصرفوا في الخفاء... سيُكتَشف أن يدهم وراء كل بلبلة، لكن ليس سهلاً إثبات تورطهم في كل مرة. عندما قتلوا بنديكتو السادس، كان عليّ أن أنفذ حكم الإعدام ضدهم، ضده بتهمة القتل، وضد بونفاشيو لاستيلائه على منصب البابا. إلا أنني توقفت خوفًا من نبلاء روما، واليوم ندفع ثمن هذا الخطأ. فنفيه كان تأجيلاً للمشكلة، وفي النهاية تفاقمت المشكلة، فبعد عودته يتمتع بسمعة طيبة وشعبية أوسع.

جيلبرت: كنت أظن دائمًا أنه يخفي، خلف مطالبه القومية، هواية واسعة في المكائد. فالتمرد بالنسبة إليه ليس أكثر من لعبة. ومع مرور الوقت فإنني أقتنع أكثر بأنه يشعر بالملل من حكم المدينة القدر نفسه الذي يسليه التآمر.

أوتون الثاني: إنها ملاحظة ذكية. ولكن، كيف يمكن القضاء على هذا الشر؟ هل يجب أن أسميه المتآمر الرسمي للإمبراطورية؟
(يضحكان.)

جيلبرت: لقد حاولت منذ سنوات إقناع والدكم بغزو القدس.

أوتون الثاني: أعرف غرضكم.

جيلبرت: إنه مشروع سيؤدي إلى حماية إخواننا في الدين وسيمنع الحرب بين الأشقاء.

أوتون الثاني: إنني موافق، وأشاطرك الرأي في أن هذه المهمة سوف توحد إرادة الجميع. وأكثر من هذا فإنني أعتزم التحالف مع الملك هوغ كابيت [٨] ومع ملك بورغونيا لإرسال جندنا لمحاربة المسلمين [٩].

جيلبرت: لا يوجد أفضل من عدو مشترك لتأسيس تحالف.

أوتون الثاني: ومع ذلك فإن غزو الأراضي المقدسة يمثل لي طريقًا مليئًا بالعقبات.

جيلبرت: سيتم تذليلها شيئًا فشيئًا حسب اللزوم.

أوتون الثاني: **(بعد التأمل.)** عليك أن تزورني في رافينا كي ندرس معًا جدوى تنفيذ خطتك. **(يدعوه بإشارة إلى مصاحبته عند المخرج.)** بالمناسبة الملكة تهدي إليك التحية.

جيلبرت: ألا تزال في النقاهة؟

أوتون الثاني: هناك عالم طبيعيات فارسي أرسله إليها والداها من اليونان كان وراء معجزة شفائها.

جيلبرت: علمت بعض الشيء من رسالة لوالدتك، امتدحت فيها ابنكما لكونه يقظًا.

أتون الثاني: **(بفخر.)** يقظ؟ لقد وُلد وعيناه مفتوحتان، الأمر الذي لم يحدث من قبل. الحق أنه لم يتأخر كثيرًا، منذ أن كان في المهد وهو يولي أمور الحكم اهتماماً كبيراً.

---

(8) Huges Capet (٩٣٨-٩٩٦): مؤسس السلالة الكابيتية التي حكمت فرنسا حتى الثورة عام ١٧٩٢. أخذ الملك عن الكارولينيين. (المترجم)

(9) Sarraceno: يستخدم المؤلف هذه الكلمة التي أطلقها الأوروبيون في العصور الوسطى على مسلمي أوروبا وإفريقيا، على أثر معركة بواتيه التي هُزم فيها العرب جنوبي فرنسا وتوقف الزحف الإسلامي على أوروبا وانحصر في الأندلس. وهناك نصوص عربية تستخدم كلمة "سراسية" على أنها مرادف لها. ونظرًا إلى خصوصية النص وسياقه التاريخي فإن المؤلف يستخدم كثيرًا من ألفاظ تلك الحقبة التاريخية التي لا تستعمل في اللغة الإسبانية اليوم (المترجم.)

جيلبرت: إنــه لمــن دواعــي انشــراح الصــدر تــأمين الأســرة الملكية في الحكم.

أوتون الثاني: خاصـةً عنـدما يجـب تعـريض الحيـاة للخطـر دفاعًـا عن الإمبراطورية في أرض المعركة.

(يخرجان. ظلام.)

المشهد الرابع

(رافينا، ٩٨٣ م)

(أوتون الثاني "الأحمر" مستلقيًا في الفراش، في حين تراعيه أمه أديليدا دي إيطاليا وزوجه تيوفانيا اليونان. وكذلك على يد عالم الطبيعيات حاجِ عباس من بلاد فارس الذي يسخن إناءً على موقد.)

أديليدا: **(تفرش ملاءات السرير)** لا تتعب نفسك، فعليك أن تهوي نفسك. ليس طيبًا أن تصاب بالبرد وعندك حمى.

أوتون: من فضلك يا أمي لا ترهقيني برعايتك.

أديليدا: إذا لم تكن عديم التبصر لما كنت في هذا الوضع.

أوتون الثاني: **(ملقيًا العظام)** وابعدي عني هذه العظام.

أديليدا: إنها عظام غراب لعلاج المغص ونوبات الصرع.

أوتون الثاني: إنك تزيدين ألمي. كنت أظن أنها رفات قديس.

أديليدا: كان الجدة تدلك السُرَّة بها من أجل تسكين ريح الأمعاء. كا أن خالة لي ...

أوتون الثاني: **(غاضبًا.)** إنني أرفض علاجي بالسحر والتمائم، مهما كانت عادة أسرية. **(يستوي في مجلسه.)** هذا بالإضافة إلى أنني مللت السرير.

أديليدا: **(تمنعه)** ارجع إلى الفراش حالاً، فأنت ترى ما حدث لك من جراء النوم في الطل.

أوتون الثاني: **(معكَّر المزاج.)** حسنٌ، موافق.

حاج عباس: إن مرض ابنكم يا صاحب القداسة لا يرجع إلى النوم في الهواء الطلق؛ بل إلى مياه ترعة موبوءة بالطاعون، وبالتأكيد نقلت إليه العدوى.

أديليدا: ليس ضرورياً وجود عالم طبيعيات لمعرفة أصل الأمراض، بل لعلاجها.

(تيوفانيا وحاج عباس يتبادلان نظرات تواطؤ وصبر.)

حاج عباس: حسب بحوثي في تركيب الأدوية فإن ابنكم يُعالج بأفضل طريقة. **(يقرب الإناء من أوتون الثاني.)** اشرب من هذا التذكار للراهبات الكابوشيات فمن المؤكد أنه سيخفف ألم الأمعاء.

أوتون الثاني: **(بعد أن شربه دون رغبة ووجهه يعلوه الاشمئزاز)** لقد أصبتني بالملل من كل هذا الشراب الطبي والمشروب الكريه.

حاج عباس: ليس شراب ينسون، ولكن حسب سيره في الأمعاء سيهدئ المغص. **(يخرج حاملاً الإناء والموقد.)**

تيوفانيا: إنكم تعرفون أنه لا يوجد عالم طبيعيات أحسن منه في الشرق. **(تحاول تعديل لُحف السرير.)**

أوتون الثاني: لا تغطيني هكذا، فبهذه الطريقة سأموت مختنقاً.

أديليدا: **(تنزع الأغطية.)** اتركيها، سأغطيه أنا.

أوتون الثاني: **(معريًا نفسه حتى وسطه.)** هل تريدون أن تتركوني وشأني؟

أديليدا: استرها يا رب، لا حل لكم!

(دون سابق إنذار يدخل على عجل جيلبرت دي أوريلاك.)

جيلبرت: صاحب الجلالة.

أوتون الثاني: أخيرًا! كنت أخشى ألا تأتي.

جيلبرت: لقد شرعت في المجيء لحظة استدعائكم لي. **(يحيي السيدتين.)** صاحبتي الجلالة. **(إلى أوتون الثاني.)** ماذا دهاك؟

أوتون الثاني: ما لم تستطعه سهام المسلمين حققته مياه ترعة.
تيوفانيا: لقد أصابته فجأةً عدوى خبيثة من غنيمة عفنة.
أديليدا: هذا ما يقوله الطبيب [١٠]، إلا أنني أرى أنه محموم قليلاً.
أوتون الثاني: الحقيقة أنني سأذهب.
جيلبرت: يجب أن يكون هناك علاج.
أوتون الثاني: يد الله تخفي عيني عالم الطبيعيات كي لا يعترض العلم على أمره.
أوتون الثاني: إذا كان يتركنا نعتني به على الأقل ...
أدليدا: إنكم تعرفون كم هو عنيد.
أوتون الثاني: من شابه أمه فما ظلم. **(يضحك دون أن يشاركه أحد الضحك، وبعد أن يتوقف عن الضحك يتوجه إلى الملكتين بصوت هادئ فيه نبرة تصالح.)** والآن اتركانا، فعلي أن أتكلم على انفراد مع رئيس الدير.
(تخرج أديليدا وتيوفانيا في صمت.)
أوتون الثاني: لقد وصلت ساعتي.
جيلبرت: هل حالتكم بهذا السوء؟
أوتون الثاني: لقد أمرتكم بالمجيء لأنني أريد تعيينكم مربياً لابني.
جيلبرت: لكن ابنكم لديه مربيان جيدان.
أوتون الثاني: إنهم سيعلمونه الثلاثية والرباعية. [١١]
جيلبرت: ماذا تريد إذن؟
أوتون الثاني: **(بفخر.)** كان عليك أن تراه في فيرونا عندما عينته ولياً للعرش. يا لها من رباطة جأش، وبأية ثقة تصرف، مع العلم أن عمره ثلاث سنوات فقط. إنهم

---

(10) يستخدم المؤلف لفظ galeno نسبة إلى الطبيب اليوناني غالينوس على غرار ما كان يطلق على الأطباء في العصور الوسطى (المترجم).

(11) Trivium و cuadrivium: اللفظ الأول يعني الفنون الثلاثة الليبرالية الأولى التي كانت تدرس في العصور الوسطى: النحو والبلاغة والجدل. أما اللفظ الثاني فكان يطلق على الفنون الرياضية الأربعة: الحساب والموسيقى والهندسة وعلم النجوم (المترجم).

يطلقون عليه "عالم مدهش"، ولا يستحق أقل من هذا.

جيلبرت: سيكون إمبراطوراً عظيماً.

أوتون الثاني: أريد أن تربيه كحاكم؛ فمع الأسف لن أستطيع ذلك. يجب أن أنقل إليه مهمة توطيد الإمبراطورية، التوصل إلى اتحاد المسيحية، وليس هناك أفضل منك يمكن أن أوكل إليه هذه المهمة. **(وقفة.)** لقد كانت فكرتك، وكنت من أقنع والدي بالاضطلاع بها، وبعد التنحي نقلها إلي، والآن يشاء القدر أن تكون من يلقن الثالث من أسرة أوتون هذه التطلعات.

جيلبرت: ألا تستبقون الأحداث بهذه الطريقة؟

أوتون الثاني: الجسد يتعرف نداء التراب.

(جيلبرت يقوم بإشارة فيها عتاب، وأوتون الثاني يسكته بإشارة.)

أوتون الثاني: بعد وفاتي سيحاول الجميع السيطرة على ولي العرش، لهذا أمرت أن تتولى زوجي الوصاية على العرش. **(يمزح.)** سيكون علي أن أسمع والدتي عندما تفتح الوصية، فمن المؤكد أنها ستندد بالفضيحة.

(يضحكان.)

أوتون الثاني: سأعوضها بحكم إيطاليا. كما أن دوق بورغونيا يقلقني، مع أنني أبلغت مجلس الوصاية بذلك. إنها قضايا إن لم تكن قد حُسمت فقد نُظِرَ فيها. وبذلك يبقى لنا كريسشنزيو.

جيلبرت: ألم يُحبس في دير؟

أوتون الثاني: عندما حاصرت روما لجأ بموجب صفاقته إلى دير كي لا يصيبه أذى. لكن عندما يصل إليه خبر وفاتي سيعلق ملابس الرهبنة وسيقود الوطنيين.

جيلبرت: اللعنة على هذا العدو!

أوتون الثاني: إنني أنصحكم بالتحالف مع البيزنطيين، إلا أنني لا أريد أن أؤثر عليكم، فالسياسة يجب أن تتخذ يوماً بيوم، في حينها، وما يبدو مناسبًا يمكن ألا يكون هكذا غدًا.

جيلبرت: هذه حقيقة. فالتقلب الإنساني يصل إلى حدود بحيث إن إنسانًا، في شيخوخته، يمكن أن يكون عدوًا لذلك الذي كان في شبابه، إذا حمله الزمن على مواجهته به نفسه. (**وقفة**.) وإذا كان أبسط الأشخاص يغير طابعه فقط بتلقي إهانة، فماذا لا يحدث مع أناس متمرسين بالمكائد والتآمر؟

أوتون الثاني: وعلى أساس هذه الحكمة التي تتمتع بها أريد أن أكلفك برعاية ابني. (**وقفة**) منذ سنوات تراودني فكرة تنصيبك بابا.

جيلبرت: (**دهشة، رضا، حيرة، قلق كبير**) أنا...

أوتون الثاني: عملاً بنصيحتكم، فإنني كنت أنوي إعادة بناء الإمبراطورية الكارولينية، التوصل إلى الاتحاد مع بيزنطة. هكذا كنت آمل أن أنهي فترة ملكي. وهذه ليست اللحظة المناسبة للتطرق إلى هذا المشروع الكبير. ربما بمساعدتك يصبح ابني الذي يتمكن من تحقيق ما يرفضه الموت: عالم مسيحي واحد له بابا واحد وإمبراطور واحد، والاثنان متحدان في مدينة روما.

(ظلام)

المشهد الخامس

(رانس، ٩٩٤ م)

(جيلبرت، رئيس أساقفة رانس، يتبادل الحديث في قاعة طعام الدير مع رؤساء أساقفة سين وطور وبورج).

مطران سين: الرحيل هذا المساء، فربما يكون قد نزل في سان ريميجيو.

مطران طور: وإذا كان قد مات في روما؟ يمكن أن يكونوا قد نصبوا له كمينًا.

مطران سين: يجب ألا نسبق الأحداث.

مطران طور: لقد رحل منذ عشرة أسابيع صوب رانس.

مطران سين: يمكن أن يكون قد تأخر.

مطران طور : للراحة!

جيلبرت: إذا لم يرجع خلال عشرة أيام سأرسل بحثًا عنه.

مطران بورج: **(يتكلم بملء فمه)** إنني قلق.

مطران طور: من الجلي أنك غير قلق.

مطران بورج: خاصة عندما نعرف مسبقًا نتيجة وساطته.

مطران سين: ربما كان علينا أن نطيع استدعاء الحبر الأعظم.

جيلبرت: **(ينهض من المائدة)** لقد قمنا بما كان يجب أن نفعل، لا داعي إلى الأسف الآن. (متوجهاً إلى مطران طور.) بالنسبة إلى التأخير فأنا معك. لا تبدو غير معقولة فكرة أن يكون تابعو كريسشنزيو قد قبضوا عليه في كمين.

مطران بورج: **(ليس مستعدًا لإنهاء العشاء.)** أليس لديكم من تلك الحلوى المصنوعة من اللوز التي علموكم إعدادها في الأندلس؟ ما اسمها؟

جيلبرت: **(بضيق)** الفاخور.[١٢]

مطران بورج: آه، نعم هذا هو اسمها.

جيلبرت: عندي من هذه الحلوى عادةً.

مطران بورج: إنها لذيذة. **(إلى جيلبرت.)** عليك أن تعطيه منها ليتذوقها.

جيلبرت: **(بلا حماسة)** سآمر بأن يقدموا لك هدية منها. **(يخرج من غرفة طعام الدير.)**

مطران بورج: سترى كم هي فائقة الجودة.

مطران طور: **(منفجرًا)** بالله عليكم! هل هناك شيء في هذا العالم قادر على أن يفقدكم الشهية؟

أسقف بورج: (دون اضطراب.) في الحقيقة لا. وليس لأن العالم الذي نعيش فيه خالٍ من الفظائع التي تؤدي إلى فقدان الشهية، بل لقرار شخصي، فكرت فيه ملياً، ولا أفكر في حرمان نفسي من لذة حتى يصل اليوم الذي أقع فيه ضحية لهذه الخيانة التي تهددنا جميعاً.

جيلبرت: **(يدخل)** الآن يعدونها لك.

مطران طور: أليس من العقل استخدام هذه الطاقات **(مشيرًا إلى سمنته)** التي تزيد على حاجتكم في الدفاع عن أنفسكم من أعدائكم؟

مطران بورج: إن تغيرات الحظ ليس لها علاقة كبيرة باستحقاقاتنا. لماذا أجتهد إذا لم تكن في يدي الحيلولة دون أن يحفروا قبري؟

مطران طور: إنك تغيظني.

مطران بورج: **(إلى جيلبرت)** وماذا تقول لي عن سلفك؟

جيلبرت: متعب.

مطران سين: **(يستشري اليأس)** يرثى له.

مطران طور: **(بثبات)** كان عدوًا لنا.

---

(12) Alfajor : اسم نوع من الحلوى الأندلسية كان يصنع من اللوز والصنوبر والعسل (المترجم).

مطران بورج: وهو ما يجعلنا لا نشعر بالشفقة. (**متأملاً**.) بينما كان مبتورًا وفي حالة مزرية كان يتوسل إلينا كي لا يقتلوه، وضعت نفسي في موضعه. هل تعرفون فيم فكرت؟ (**وقفة**) هل تعرفون ماذا فكرت؟

(**يدخل المكان خادم يحمل صينية عليها حلوى**)

مطران بورج: لقد فكرت: (**يتناول قطعة حلوى**) إلى أن يكون في مكانه -وهو ما يمكن أن يحدث في أية لحظة- سآكل كل ما يقدمه لي أصدقائي من الحلوى. (**يتناولها**.) لذيذة.

مطران طور: (**متنازلاً**.) إنني أحسدك على هدوئك. (يقترب من النافذة.)

(يترك الخادم الصينية فوق المائدة ويخرج.)

مطران سين: كل شيء غير متوقع: الأصدقاء يخونونك، الأعداء يساندونك... (**إلى جيبلرت**) من كان يتوقع أن الذين رفضوا منحك الأبرشية، بعد زمن، هم أنفسهم الذين يرشحونك لمقر رانس؟ (**إلى مطران بورج**) في الواقع لا يخالفك الحق.

مطران بورج: لا أفتقد الحق؟ بالطبع لا ينقصني حق! الكابيون والكارولينيون والبيزنطيون والجرمان والبورغينيون ...

مطران سين: والكريسشنزيون...

مطران بورج: نعم، بالطبع، والكريسشنزيون.(**وقفة**) أي واحد يستطيع أن يتآمر مع آخر، وإذا لم يبلغك في الوقت المناسب، (**مشيراً إلى نفسه**) فأي شخص يمكن وفي أي لحظة، (**مشيراً إليهما**) أن يُقتل على يد أي شخص.

مطران سين: منذ أن خطف البورغيني ولي العهد فإن الإمبراطورية تعيش حالة احتضار.

جيلبرت: لقد نبهني لذلك الإمبراطور في فراش الموت: "بينما لا يصل إلى سن الرشد سيكون من الصعب إخضاع دافعي الضرائب". نعم لقد حذرني، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ إنني مجرد مربٍ له.

مطران سين: من الواجب مواجهة المستشارين. يجب عمل شيء، إذا كان من الواجب تهدئتهم، فمن أفضل منك؟

مطران بورج: (وفمه مليء.) حقيقي. لقد كنتَ معلمه.

جيلبرت: هل هناك فشل أكبر؟ كونتات وملوك ـ والإمبراطور نفسه أيضاً ـ كلفوني بتربية أبنائهم، ومع أنني لقنتهم مبدأ الوحدة جيدًا، فإنهم لحظة أن يعودوا إلى إقطاعياتهم يواجهون بعضهم بعضًا كما ترون.

مطران سين: نأمل أن يؤدي تتويج ولي العهد إلى القضاء على هذه المصيبة.

جيلبرت: إنني أحسب الأيام الباقية على إتمامه السادسة عشرة. (وقفة.) إنني أشتاق إلى أيام الدراسة. (**وقفة جديدة**) والموسيقى. إننيُ مستعد للتخلي عن كل شيء من أجل العمل بالأرغن.

مطران سين: ما هذا الاختراع الجديد؟

جيلبرت: آلة بالبخار، شبيهة بالصفارة التي تعرفها.

مطران طور: (**من النافذة**) انتبهوا لحظة.

(يسمع صوت عربة تتوقف أمام الباب)

مطران طور: أهو؟

جيلبرت: من سيكون سواه في هذه الساعة؟

مطران طور: الحمد لله. كنت أخشى... أفترضَ ما هو أسوأ.

مطران بورج: (**يتناول قطعة حلوى أخرى**) عليك أن تتعلم مني. **(يلتهما مرة واحدة، ويواصل الكلام وفمه مليء)** لا يمكن تفادي الشرور لمجرد الخوف منها، ما دام الخوف في ذاته شرًا.

مطران طور: إنه يثير حنقي.
(يدخل أيراردو يعلو وجهه الغضب)

جيلبرت: كنا قلقين عليك.

أيراردو: لقد عملت بنصيحتكم واحتطت. خلال إقامتي – تأخر أربعة أيام في استقبالي- لم أظهر لأحد تقريبًا. وبعد أن استقبلني شرعت في الرحلة فجأةً تفاديا لكمين محتمل.

مطران سين: وماذا بعد؟

أيراردو: محرومون كنسيًا.

مطران سين: ملعون...!

مطران: كان منتظرًا.

مطران طور: ماذا تعني.

أيراردو: لقد ثبُت: الملك والمطارنة والأساقفة المساعدون، كل الذين حضرنا المجلس تم حرماننا كنسيًا ... بشكل مؤقت.

مطران سين: هل عرضت عليهم أننا مستعدون لإعادة النظر في تصرفنا؟

أريباردو: بالطبع عرضته عليه. لكنه ثابت في قراره.

جيلبرت: لم يكن قراره، و لا هذا الثبات. فكريسشينزيو هو الذي يحرمنا كنسيًا، فالبابا ليس أكثر من إمعة يعمل حسب هواه.

مطران بورج: إنني لا ألومه على ذلك. بل أكثر من هذا، فلو كنت في مكانه ...

مطران طور: في مكانه! **(بقوة)** كان عليك أن تضعه في مكانك، بدلاً من أن تمضي الحياة في أمكنة الآخرين.

مطران بورج: إنه لمن المفهوم ألا يريد أن ينتهي مثل أسلافه: لقد عذبوا يوحنا الرابع عشر في سان أنجلو إلى أن فاضت روحه، وبونيفاشيو الذي مات مسمومًا

تركوه دون أن يدفنوه أمام تمثال قسطنطين بعد أن سحلوه عاريًا في شوارع روما.

مطران طور: بونيفاشيو كان بابا زورًا.

مطران بورج: مهما كان بابا زورًا. لا أدري، فهذه ليست أخلاقًا.

مطران سين: سواء أكان بابا زورًا أم لا، فالبقاء عامًا على كرسي بطرس يعد مأثرة.

مطران بورج: (**إلى مطران طور**) آسف، لكنني (**مشددًا**) لو كنت في مكانه لحرمت كنسياً كل المرات التي يطلبون مني فيها هذا.

مطران بورج: اهربوا من المارق، من الرجل الذي يبتعد عن الكنيسة، هذا ما تقوله الكتب المقدسة وهذا هو ما سأفعله. (**وقفة**) لم أشكك قط في سلطة البابوية، ولكن إذا كان البابا يتصرف مثل نائب كريسشنزيو فلست مديناً له بالطاعة ولا عليَّ أن أنصاع لحِرْمه الكنسي. (**وقفة**) منذ قرن والبابوية تعيش تحت رحمة صاحب أكبر عرض. ألا توجد طريقة للقضاء على العار؟

مطران بورج: (**بجفاء**) نعم، أفضل عرض.

مطران طور: ما هذا الهراء الجديد؟

مطران بورج: ما سبب نفوذ كريسشينزيو؟ إلى ثروته الواسعة. فلنكن أثرياء وذوي نفوذ، وهكذا لن نكون باباوات فقط، بل أيضًا يمكن أن نكون نحن من يعينهم.

مطران طور: من فضلك لسنا في مزاح.

جيلبرت: (**يرد على مطران بورج**) هذه هي الحال التي وصلنا إليها. لسنا تجارًا على باب الدير، فالدير هو المعروض للبيع.

مطران بورج: فلنشتره. هل يعرف أحد طريقة الحصول على ذهب بوفرة؟

أيراردو: **(بعد وقفة، يتوجه بخجل إلى جيلبرت.)** في إحدى زياراتي للأندلس لإحضار كتب حساب، وقع في يدي ربطة من أوراق البردي متردية جداً، مكتوبًا كلها بطريقة قدماء المصريين، ومثلها من الرق، في حالة أفضل، مكتوبًا عليها كيف أُنقذت البرديات من حريق مكتبة الإسكندرية وكيف يُشرح فيها طريقة امتلاك رأس الذهب الذي، على ما يبدو، ينبثق عنها الثروات.

(جيلبرت يسمع مصعوقًا)

مطران طور: لكن هل سنمضي الليلة في قص الحكايات؟

مطران بورج: لا تبدو لي فكرة سيئة.

أيراردو: ..... وقعها مصري آخر، ووضع لها تاريخاً منذ نحو مائة وخمسين عامًا. آسف أنني نسيت اسمه، لكنني أتذكر أنه بعد التوقيع أضاف "سيد الأسماك".

جيلبرت: **(وهو مغتاظ جداً)** وكيف لم تحصل على ربطة البردي؟

أيراردو: **(مضطربًا)** لا أدري، لم يكن هذا أمرك. فبالإضافة إلى أنه لم يكن للبيع كانوا قد اقتنوه لمكتبة الحَكَم.

مطران سين: من الواضح أن هذه البرديات قرأها آخرون، فهناك شائعات بأن أحد المعوزين، تحت وطأة الدائنين، حاول تحويل معادن رخيصة إلى عملات ذهبية.

مطران بورج: بينما ما هو طبيعي تحويل العملات الذهبية إلى أفعال دنيئة.

(ضحكات عامة من قبل الحضور، باستثناء مطران طور، إذ يبدو عبوسًا، ويبدو جيلبرت قلقًا.)

جيلبرت: لكن لِمَ لم تخبرني بالعثور على هذه البرديات؟

أيراردو: كنت أجمع وثائق عن أسطرلابك. "الحساب وعلم الفلك" كما قلت لي، حسب ما أتذكره جيداً، "ولا شيء لا علاقة له بهذه المادة".

جيلبرت: ومع ذلك كان عليك أن تخبرني.

أيراردو: لا تعر الأمر أهمية. وإذا كنت قد تذكرت ذلك الآن فإنه بسبب مزاحك عن الذهب.

جيلبرت: **(إلى أيراردو)** هل تذكر ما إذا كانت فيها إشارات إلى الإلهة إيزيس؟

مطران طور: آه، لا! آلهة وثنيون، لا.

أيراردو: ممكن، إلا أنني غير متأكد. لو كنت أعلم...

جيلبرت: دعوا هذا الأمر. لا يهم.

مطران سين: أتعتقد أن له علاقة برأس الشيطان الذي كنت تبحث عنه في شبابك؟

جيلبرت: يمكن أن يكون الرأس هذا فقط: كتابًا. **(أبدى تأثرًا.)** ولكن كيف تعرف...؟

مطران سين: لقد أجبت بنفسك عني.

مطران طور: **(واقفًا)** إذا كنتم ستواصلون الهذيان، سأنسحب أنا.

مطران بورج: إنني جادٌ جداً. **(يبدأ في الخروج، لكنه يتوقف جنب الباب)** كما لو كنت لا آخذ الأمر بجدية في لحظة المحنة هذه؟

مطران بورج: عليك أن تتعلم الضحك من مصائبك.

مطران طور: الضحك وقد حُرمنا كنسياً؟

مطران بورج: لقد منح الله الإنسان ميزة الضحك عن كل المخلوقات.

مطران طور: منحها للإنسان والضبع.

مطران بورج: حقيقي، وللضبع. فمما لا شك فيه أن الخالق برحمته الواسعة، عوضنا هكذا، سواء بالنسبة الى الضباع وإلينا، بضرورة العيش بين الجيفة.

الفصل الثاني

المشهد الأول

(قرطبة، ٩٩٧ م/٣٨١هـ)

(جيلبرت يدخل صالة الاستقبال في مدينة الزهراء[1]، يقوده كبير الخدم).

قهرمان: انتظر في هذه الغرفة، فسيأتي للقائك.

جيلبرت: **(غير مصدق)** أيعيش هنا يوسف؟

قهرمان: بالطبع لا. إنه في قصر المنصور. قصر الوزير جنب دار ضرب العملة.

جيلبرت: **(لنفسه)** إنه صعود في سرعة النيزك.

قهرمان: ماذا تقول؟

جيلبرت: لا، لا شيء.

قهرمان: إذن، اسمح لي أن أبلغ الوزير بوصولك.

(خرج القهرمان وبعد لحظة يصل يوسف مرتدياً ملابس فيها أبهة.)

يوسف: **(باسطًا ذراعيه)** صديقي جيلبرت.

---

[1] مدينة الزهراء: قصر أسسه عبد الرحمن الثالث في ضواحي قرطبة على اسم جاريته الزهراء. كان مضرب الأمثال في البذخ والترف العربي في الأندلس. تعرضت للتدمير على يد الطوائف وبقيت أطلالا إلى أن شرعت الحكومة الإسبانية في ترميمها منذ ثمانينات القرن العشرين، فاستعاد كثيرا من ماضيه وتقام فيه معارض تتعلق بالحضور العربي في الأندلس، لعل أبرزها ما افتتحه الملك خوان كارلوس والرئيس السوري بشار الأسد في ربيع عام ٢٠٠١ (المترجم).

جيلبرت: **(ماسكاً إياه من ساعديه)** إنني أراك في أحسن حال. لن أقول إنك تشبه الوزير فأنت وزير.

يوسف: أنت قادم من بلاد الفرنجة حسب ما أخبروني.

جيلبرت: من رينس. إنه رحلة مرهقة. مختلفة تماماً عن التي قمنا بها من طراغونة. أعتقد أن سني العمر لا ترحم.

يوسف: لا تذكرني. لقد تركت القوافل منذ زمن. بسبب ألم القطن. **(موضحًا)** من تمايل الجمال.

(حركة استغراب من جيلبرت)

يوسف: لقد تركت تجارة الصقلبيات، ولم أكن أسافر إلى قطالونيا، بل إلى الصحراء. صعب موضوع الجمال. ويا له من حر.

جيلبرت: وكيف غيرت المسكن إلى الأسوأ؟

يوسف: المنصور، المسؤول عن الوصاية على الخليفة، أوكل إليّ مهمة مراقبة طرق الذهب. لم يكن ليخطر ببالي قط، لكن كان عليّ أن أصاحب الصديق في صعوده. إنني لا أشكو، لأن فالذهب يؤدي إلى رفع المستوى **(عن قصد)** ولكن الصقلبيات...

جيلبرت: إنني أرى أنك لم تتغير.

يوسف: **(مازحًا)** كيف أنني لم أتغير؟ أنا الآن وزير. وزير مالية.

جيلبرت: يا لك من رجل يا يوسف.

يوسف: ولكن فلنتحدث عنك. كنت في بوبيو، أليس كذلك؟

جيلبرت: كان عليّ أن أرحل. عادةً ما يكون الإيطاليون عدوانيين مع الأجانب. هذا بالإضافة إلى أنهم أتوا على الدير، وكان الوضع من العوز إلى درجة أننا جعنا. لهذا عدت إلى رانس. **(وقفة)** في البداية لم تكن الأمور سيئة. كما أنهم عينوني مطرانًا.

يوسف: لم أكن أتصورك رجل كنيسة قط.

جيلبرت: لكن هذا الأمر لم يدم طويلاً.

يوسف: عجبًا! آسف.

جيلبرت: مكائد وخيانات. لا شيء جديد. (وقفة.) مع أنني كنت أعتقد أنك على علم بعودتي إلى رانس. ألم يخبرك بذلك مندوب أرسلته طلبًا لكتب ...؟

يوسف: راهب خجول؟

جيلبرت: إنه هو. وأريد أن أحدثك عنه.

يوسف: نعم، أتذكر الآن. وهل سبب الجرْم الكنسي مشكلات لك؟

جيلبرت: أكثر مما كنت أتوقع. فمع أنني أتمتع بمساندة الإمبراطور – لم يذهب سدى أنني كنت معلم ولي العهد- كان الجميع يتجاهلني.

يوسف: أحسنت صنعًا بمجيئك، فأنت هنا تستقبل بالترحاب. المنصور سيأتي إلى هنا الآن، ومع أنه مشغول بالإعداد للحفل، فإنه سيترك كل شيء ليحيك. (وقفة) اليوم يوم خاص.

جيلبرت: إنني أعلم ذلك. ارتحت من السفر يومًا في سان كوغات، وهناك أخبروني بغزو كومبوستيلا[٢]. كنت على وشك العودة إلى رانس.

يوسف: لكن، لماذا؟

جيلبرت: أعمال السلب والنهب كانت إهانة للمسيحية كلها.

يوسف: حتميات السياسة. أعمال ضرورية للحفاظ على الصيت.

جيلبرت: في سان كوغات لم يفيقوا من التجاوزات التي رفعت بها مقامك منذ اثني عشر عامًا.

---

(2) كومبوستيلا أو شانت ياقب Santiago de Compostela : مدينة في إقليم غاليثيا، أو جليقة حسب التسمية العربية، شمالي غرب إسبانيا. فيها مزار للقديس يعقوب الأكبر، وهو من أهم الأمكنة التي يحج إليها المسيحيون في الغرب. وهناك حكايات أسطورية حول مشاركته في طرد العرب من المدينة، ويطلق عليه "يعقوب قاتل المسلمين" Santiago Matamoros.

جيلبرت: إنها الحرب، لكن هذا لا يجب أن يؤثر في صداقتنا. المنصور يعدك صديقًا.

جيلبرت: هل سيذلني بمروءته أيضا؟

يوسف: إنها سخافات لا يراها أحد، فالمنصور رجل بسيط. لا علاقة له بالمنصور صاحب الانتصارات. أريد أن تسمعه يحكي كيف انسحبنا من سانتياغو دي كومبوستيلا. طريقة حكيه المليحة.

جيلبرت: هل حدث شيء يستحق الحكي؟

يوسف: ألم تدر؟

جيلبرت: لا.

يوسف: إسهال.

جيلرت: **(مازحًا)** إسهال؟

يوسف: **(يضحك بصوت عالٍ)** إسهال. **(بعد أن هدأ في الضحك)** لقد سقطت المدينة دون معركة، ولكن خلال أعمال السلب والنهب، عارض المرتزقة، وغالبيتهم من المسيحيين، دخولنا الكاتدرائية، لهذا لم يكن أمامنا سوى القضاء عليهم. **(مقللاً من أهمية الأمر)** إنك تعرف كيف تكون هذه الأمور. **(وقفة)** الواقع أن المنصور تبادر إلى ذهنه إحضار الأجراس لتزيين المسجد بها -على وجه الدقة عندما يعلقونها-، فبينما كنا ننزلها ونجهزها، تحللت الجثث، وهذا أسفر عن التهابات. **(يتنفس)** وبهذه الطريقة عبرنا شبه الجزيرة دون أن نُقهر **(بسخرية)**، وإن كنا قد خسرنا الصحة تحت القدمين.

جيلبرت: **(ضاحكًا)** ليست صورة حربية.

يوسف: لا تقل له شيئًا، ربما يكون في حالة غير ملائمة، فهو سيتكلم عن هذا الأمر من نفسه، ويحكيه بظرف...

جيلبرت: لا عليك، فلدي أمور أخرى لمعالجتها. هل تذكر أنني وعدتك بالعودة لحظة العثور على رأس الشيطان؟

يوسف (**مذهولاً**) لا تقل لي إنك عثرت عليه. يا لك من رجل شيطان!

جيلبرت: ليس في حوزتي بعد.

يوسف: لهذا كنت أتعجب.

جيلبرت: لأنني أعرف أنه في قرطبة.

يوسف: (**مازحًا**) ينبوع الذهب تتدفق جنبي، وأنا وزير المالية، لا أدري؟

جيلبرت: إنني أتكلم بجدية.

يوسف: وأنا. (**يواصل مزاحه**) منذ أن قصرت الدولة الفاطمية تجارتها على بلاد المغرب، هناك تضخم كبير سيحملنا في النهاية إلى ضرب دراهم الذهب دون ذهب. ليس هناك مجال للمزاح، إذا تمكن بافوميت Bafomet من ضبط الموازنة لنا.

(**يدخل ابن أبي عامر المنصور أنيقًا في ملابسه**)

ابن أبي عامر المنصور: أين هذا المسيحي الذي جرؤ على دخول مدنية الزهراء كما لو كان خليفة؟

جيلبرت: (**بشيء من الجفاف، وإن كان ودودًا.**) قصر فخم، يجعل كل ما يقام على ضفتي دجلة شاحباً.

ابن أبي عامر المنصور: قد لا يكون ذا قيمة مقارنة بقصور بغداد، لكنه يساوي أو يتفوق على مدينة الزهراء.

جيلبرت: لم أكن أعرف تواضعكم.

ابن أبي عامر المنصور: (**يضحك**) وأنا أيضاً أجهل تواضعي.

جيلبرت: (**مشيراً إلى المسكن**) أهنئكم.

ابن أبي عامر المنصور: ضروريات السلطة، فلا يهم الحاكم شيء مثل عرض ثروته. ولكن لا تصدق أن من السهل الحفاظ على إيقاع الحياة بهذا الشكل.

جيلبرت: (**متهكمًا**) نعم، الثراء يتطلب تضحيات كثيرة.
ابن أبي عامر المنصور: أراك متعبًا. ربما من السفر؟
جيلبرت: ومن الحياة؟
ابن أبي عامر: نعم، لقد علمت بحرمك الكنسي.
يوسف: هل تعرفون ...؟
ابن أبي عامر المنصور: (**إلى يوسف**) بدقة. (إلى جيلبرت.) كنتَ تعتقد أن تتويج الذي كنت وصَيًا عليه إمبراطورا سيعينك بابا، إلا أنه أمام حرمك الكنسي اختار ابن عمه برونو دي كارينتيا. وهو اليوم غريغويوس الخامس.
جيلبرت: (**مضطربًا.**) إنكم تدهشونني. لم أكن أظن أنكم على دراية بهذه الطريقة.
ابن أبي عامر المنصور: حاكم بلا مخبرين لا يساوي شيئاً. الواقع أن أكثر انتصاراتي أدين لهم بها، فمن الضروري بهر العدو لردعه مثل معرفة نقاط ضعفه من أجل إنزال الهزيمة به في حينها.
جيلبرت: كنت أعلم بفخامة برتوكولكم فقد حكوا لي كيف أن ملك نبارّا عندما جاء ليعلن لكم رفضه سداد الجزية، وبعد أن بهرته الأبهة، لم يكتفِ فقط بالتراجع عن الرفض، بل إنه لتأكيد تبعيته لكم ترك ابنته بلانكا بين حريمكم.
ابن أبي عامر المنصور: الآن أنا المدهوش. هل لديك مخبرون أيضًا؟
جيلبرت: عادةً ما أسأل كل المسافرين إلى الأندلس. وهذا كي أتعلم.
ابن أبي عامر المنصور: هل لديك أخبار عن فتح كومبوستيلا؟
جيلبرت: إذلال لا داعي إليه. إهانة للعالم المسيحي.
ابن أبي عامر المنصور: إن الحفاظ على كل الممالك في شبه الجزيرة دافعي ضرائب يحتاج، بالإضافة إلى

الفخامة والمخبرين، إلى استعراض للقوة، فخيوط مؤامرة الحكم كثيرة.

جيلبرت: عند سماعكم لا أتعرف فيكم إلى بائع الأقمشة والإستبرق الذي أدخلني مكتبة القصر.

ابن أبي عامر المنصور: لا يمكن للرجل الذي أصبح خليفة أن يفكر بالطريقة التي كان يفكر بها عندما كان شابًا غير ناضج يكافح ليشق طريقه.

جيبلرت: تدريس القضاء في المسجد الجامع أمر مختلف.

ابن أبي عامر المنصور: لقد حققت ذلك في منطقة إشبيلة حيث كنت قاضياً، إلا أن كل شيء يتغير. أي، هل أنت تغيرت؟

يوسف: يتغير! إنه لا يزال يبحث عن رأس الشيطان!

ابن أبي عامر المنصور: لا يصدق.

يوسف: يا لها من مثابرة!

ابن أبي عامر المنصور: إنني أرى أنه عناد.

جيلبرت: **(غير مرتاح)** في الواقع فإنني لم أكن أبحث عنه عندما وجدته. **(موضحًا على عجل)** هذا لا يعني أنه لدي، ولكنني أعرف أين هو.

ابن أبي عامر المنصور: و... هل يمكن معرفة أين هو؟

جيلبرت: إنه لديكم.

ابن أبي عامر المنصور: **(مرحًا)** أنا؟

جيلبرت: كان ينتمي إلى الحكم، ومن المنطقي التفكير في أنه من بين ممتلكات ابنه، ولهذا فهو تحت سيطرتكم.

ابن أبي عامر المنصور: **(بتباطؤ وسخرية)** اشرح هذا الأمر. فيبدو أنني الذي أزعم معرفة كل ما يحدث من دمشق إلى نورماندي أجهل ثروتي.

جيلبرت: خلال زمن طويل، كنت أفكر أن رأس الشيطان كان هكذا: رأسًا، في حين أنه في الواقع يطلق الاسم على ما ينبثق من الرأس، أي فكره. وهو

شيء يمكن أن يتجسد فقط في كتاب، وفي النهاية أصبح ربطة. بعض أوراق البردي والرقاع، على ما يبدو أنقذت من حريق مكتبة الإسكندرية. **(وقفة)** أحد رسلي سافر من أجل شراء كتب حساب وعلم فلك، رأى كيف أن رئيس خدم أحد القصور اقتناه في السوق لمكتبة الخليفة.

(المنصور ويوسف يتبادلان نظرات لها معنى)

يوسف: هل أنت واثق؟

جيلبرت: لقد جئت إلى هنا لأتأكد من ذلك. **(إلى المنصور)** وآمل أن أحصل على تصريح منكم لفحص الربطة.

ابن أبي عامر المنصور: ما أخشاه هو أن تكون رحلتك سدى.

جيلبرت: هل سترفض منحي التصريح؟

ابن أبي عامر المنصور: لقد أمرت بحرق المكتبة منذ عشرة أيام.

جيلبرت: **(خارج طوره)** هل أحرقت مكتبة القصر؟

ابن أبي عامر المنصور: لم يكن لدي أدنى اهتمام، إلا أن الفقهاء أصروا على ضرورة التخلص من الكتب إذا كنا لا نريد أن تتسبب أفكارها في إفساد شبابنا. ومعروف عن رجال الكنيسة كم هم عقائديون. لقد ألحوا كثيرًا وأمام كسب مساندتهم -أية مساندة في السياسة ضرورية- وافقت على طلبهم.

جيلبرت: **(غير مصدق وساخطًا.)** أحرقتم أربعة آلاف مجلد؟

(يوسف يشده من ملابسه كي يعتدل في كلامه).

ابن أبي عامر المنصور: لا، كلها لا. فلا تزال كتب الطب والرياضيات والدين على أرففها. كان تهذيباً فقط: فلسفة وكيميا وعلم فلك...

جيلبرت: لكن هذا جريمة، ربما أكبر من تجاوزاتكم.

ابن أبي عامر المنصور: **(غير مكترث)** هل جئت إلى بيتي لتسبني؟

جيلبرت: إنه اعتداء! جريمة! خيانة!

يوسف: **(يجذبه)** سيطر على نفسك.

جيلبرت: لقد اغتلتم ذاكرة البشرية. قرطبة كانت رائدة العالم بمعارفها، تحولت إلى محرقة!

ابن أبي عامر المنصور: (**بارد الأعصاب**) إنك تعطي أهمية مبالغًا فيها لمخطوطات بسيطة.

جيلبرت: أهمية مبالغًا فيها وقد تمت تصفية المعرفة كلها؟

ابن أبي عامر المنصور: أتعرف ما قاله عمر عندما أحرق مكتبة الإسكندرية؟ "إذا كانت هذه الكتب تقول ما يقوله القرآن، فإنها كانت غير ضرورية، وإذا كانت عكسه فلا يمكن تحملها". (**وقفة**) لهذا نجت من النار، إلا أن هذه الربطة من البردي والرقائق كتب لها أن يكون مصيرها النار. (**مشيراً إلى يوسف كي يتبعه**) والآن علينا أن نذهب إلى المسجد لمراجعة التفاصيل الأخيرة. آمل أن أراك بهدوء قبل رحيلك.

(**المنصور يبدأ الانصراف يليه يوسف، ويتوقفان على أثر اعتراض جيلبرت سبيلهما**)

ابن أبي عامر المنصور: نعم؟

جيلبرت: أتمنى أن تتحسنوا من الإسهال.

(**وبينما يقفان وجهًا لوجه يخيم الظلام**)

المشهد الثاني

(قرطبة، ٩٩٧ م / ٣٨١ هـ)

(في كهف صحراء قرطبة ابن مسرّة وجيلبرت يتبادلان الحديث جالسين على الأرض وجهًا لوجه)

ابن مسرّة: من نصحك بالحديث إليّ؟

جيلبرت: عندما علمت أن الربطة دُمرت، شعرت بالرغبة في الرحيل إلى أكيتانيا. إلا أنني فكرت في الأمر: إذا كانت كتبًا تفسد، فإن واحدًا يكون قد فسد. من هنا كانت ضرورة العثور على الذين كانت لديهم مواقف ضد العقيدة. ولهذا الغرض طفت حول المسجد خلال عدة أيام. وبهذه الطريقة عثرت على مجموعة من المالكيين في أحسن ملابسهم كانوا يتناقشون حول آخر صيحات الملابس. كان الحمقى يزمعون تغيير النظام بتثوير طريقة اللبس.

(كلاهما يبتسم)

ابن مسرّة: إنهم يعربون عن استيائهم باعتدال كي يحصلوا على بعض الفوائد ثمنًا لاعتدالهم. كما أنهم يجهلون، أو ربما يفضلون أن يجهلوا، أن بموقفهم هذا ما يحققونه هو تعزيز الخلافة.

جيلرت: حقيقي. كانوا جميعاً في ملابس ناصعة البياض، كما لو كانوا أعمدة توسعة جديدة في المسجد الجامع. **(وقفة)** إنهم بكل بساطة مثيرون للسخرية.

ابن مسرّة: نعم، مضحكون، لكنهم خطرون أيضًا. إنهم يبدلون حزبًا بآخر عندما تمد السلطة يدها لهم. فتبرمهم لا يعود إلى كيفية تنظيم المجتمع، بل إلى عدم كونهم المسئولين عن تنظيمه.

جيلبرت: تحدثت أيضاً مع مجموعة من الصقالبة المستائين لإبعادهم بعد صعود البربر. لقد ظننت أن هؤلاء على الأقل لا يخدعون أحداً، مع أنهم لن يقدموا لي معلومات عن الكتاب. **(وقفة)** ومع ذلك ذهبت إلى سهرة من سهراتهم حيث سمعت لأول مرة كلامًا عن مدرسة بيتشبينا. كنت أجهل حينئذ أنهم تابعون لابن مسرّة. التعليقات كانت غاية في التحقير والكراهية إلى درجة أن كراهيتهم جعلتني أعلق آمالاً. كنت أستعد للسفر إلى ألمرية عندما علمت أن لا يزال لابن مسرّة مريدون في صومعات الجبل. وبهذه الطريقة جئت إلى هنا.

ابن مسرّة: لم تخطئ الطريق تماماً، فمنذ سنوات كانت أوراق البردي هذه لدي. **(وقفة)** لقد كتبها ذو النون المصري، أستاذ الكثيرين منا. أو سيد الأسماك، كما كان يطلق عليه أيضاً. وصل الكتاب إلى الأندلس على يد الحاخام مويس بن حنوج الذي بيع هو وابنه كعبد بعد أسره في سواحل صقلية. وفي قرطبة، عندما لوحظ أنه طويل الباع في اللغات، عمل مترجمًا في مكتبة قصر الخليفة إلى أن مات. في زمن خلافة عبد الرحمن ضاع المخطوط **(قاله عن قصد)** وظل لدينا حتى عدة سنوات مضت، **(إشارة إذعان)**، ثم ضاع مجددًا. لا علم لي أنه وصل إلى مكتبة القصر وأنهم دمروه للتهذيب.

جيلبرت: هل أشار إلى رأس الشيطان؟

ابن مسرّة: لا أدري. كان يشير إلى رأس ذهبي، كان يصفه أحيانًا بأنه رجل له رأس طير.
جيلبرت: برأس دجاجة؟
ابن مسرّة: على وجه الدقة؛ رجل برأس طيار [٣].

جيلبرت: ربما ذهبي؟
ابن مسرّة: وضّاء.(**بخبث**) وكذلك كان يشير إلى الذهب.
جيلبرت: هل كان كتاباً عن الخيمياء؟
ابن مسرّة: يتعلق بالكنوز التي يجب على كل إنسان أن يعثر عليها. وحكي كيف عثر هو على أوراق البردي تلك بمساعدته. آسف أنني لم أعر مزيداً من الاهتمام لقراءة هذا الجزء. جلي أنه كان نصاً مغلقاً يمكن دخوله من مداخل عديدة، لهذا لم تكن ذات فائدة لك التعاليم التي كان ممكناً لي الحصول عليها، فنظرًا إلى أن أسئلتك مختلفة كان للأجوبة أن تكون مختلفة أيضًا.
جيلبرت: إنني لا أثق من الانغلاق في النصوص.
ابن أبي مسرّة: جهدك للعثور على كتاب لا يستحق الثقة.
جيلبرت: كنت أجهل أنه كتاب عصي على الفهم.
ابن مسرّة: (**بجفاء**) هل كنت تعتقد وجود كتاب يشرح بوضوح طريقة السيطرة على العالم؟
جليبرت: ربما كنت ساذجًا. إلا أنني أمام الرسائل الغامضة كان لدي دائمًا شعور بأن عليّ أن أقدم كل شيء، فهذه الرسائل في حد ذاتها تخفي الفراغ خلف ظلامها.

---

(3) استخدم كلمة voladora وهي صفة تعني طائر أوطيار، أي الشيء الذي يطير وليس أحد الطيور.

ابن مسرّة: لا قيمة له في ذاته، فنحن نعطيها له. ما قيمة الذهب الذي تبحث عنه؟ لا شيء. الأحلام التي تريد تحقيقها بواسطته هي التي تجعله نفيساً. وخلاصة الأمر أن كل شيء في الحياة مرآة -المعادن المصقولة أكثر- وهكذا فإننا نرى ماهيتنا بشكل أفضل في مرآة أفعالنا.

جيلبرت: إنه لأمر طيب أن تكون لدى المرايا كل هذه الصور كنظرات تتأمل فيها. ولكن كون كتاب يعني شيئًا لقارئ وشيئًا آخر لقارئ آخر لا يبدو لي متسقاً مع العقل.

ابن مسرة: هذا هو الغموض.

جيلبرت: لا أفهمك. لقد أبعدت لدفاعك عن العقل أمام العقيدة، والآن تتحدث عن غموض ومرايا؟

ابن مسرة: هناك علم إثباتي وعلم مُنزل. أولهما يُتَوَصَّل إليه عبر الجهد والآخر، على العكس، سمة من سمات الطيبة. وعليه فمن الطبيعي أن يرى القديس ما يتأخر العالِم في إثباته قرونًا. الشاعر يستشرف الكون، عالم الفلك يبينه، ومع ذلك فالكون واحد. لهذا فإننا، أمام الذين يدافعون عن طريق واحد للمعرفة، نضع المضاد، مع أن الاثنين متساويان، يتم التقدم بهما، مثل سيرنا إلى الأمام بالقدمين، وهكذا يمكن التوصل إلى الحقيقة.

جيلبرت: إنني لا أشكك في الإيمان، إذ إنني أعد كفعل حميمي، لكنني أثور عندما يستخدمه أحد برهاناً لفائدته.

ابن مسرة: وهناك أيضًا من يرتكب فظائع يبررها بالعقل، وهذا لا يعني أن العقل فظاعة.

جيلبرت: إن حصولي على حق التفكير مستخدمًا المنطق يكلفني غاليًا ويصعب عليَّ أن أفهم أنك تدافع عن الانغلاق.

ابن مسرة: لا ندافع ولا نهاجم شيئاً. فالعقل والغموض كلاهما طريقان إلى التقارب، وأقول هذا (**مدعمًا القول**) كشيء منطقي، دون أن نكون متمسكين بالعقيدة أمام العقائدية.

جيلبرت: (**ساخرًا**) ربما لا ينقصك ... منطق.

ابن مسرة: (**بعد وقفة**) وماذا ستفعل بعد أن عرفت الآن أن لا جدوى من مواصلة البحث.

جيلبرت: مواصلة البحث.

ابن مسرة: إن موقفك يصعب مصالحته مع العقل، وعلاقته أكبر بالإيمان.

جيلبرت: (**يهز كتفيه**) ربما قرأه شخص آخر أو التاجر الذي باعه إلى القصر أمر بعمل نسخة. فما دام هذا الاحتمال قائماً ...

ابن مسرة: رغم أنه كتاب مستغلق الفهم؟

جيلبرت: هل هذا موضع انتقاد منك؟

ابن مسرة: على العكس. فلا شيء يستحق الثناء في رجل مثل كفاحه من أجل تحقيق أهدافه المستحيلة.

جيلبرت: سواء أكان عن قناعة أم للحاجة إلى الوصول إلى إجابة، فإن الرغبة في امتلاك هذا الرأس تظل ثابتة داخلي. فمع أن الحياة جعلت مني رجلاً مختلفاً، فإن هذا الهوس لم يفارقني قط.

ابن مسرة: محظوظ الرجل الذي يمكنه أن يتمتع بحلم صعب المنال.

جيلبرت: صعب المنال؟ سأحققه. عليّ أن أحققه!

ابن مسرة: في هذا الثبات، الذي لا علاقة له بتحقيقه، تكمن الفضيلة.

جيلبرت: عندما كنت طفلاً حلمت أنهم وعدوني الخلود والسيطرة على العالم، وإنني لعازم على استخدام حياتي كلها للمطالبة بتحقيقه.

ابن مسرة: للمطالبة؟ ممن تطلبه؟

جيلبرت: **(بعد شك)** مني أنا.

(ظلام)

المشهد الثالث

(قرطبة ٩٩٧ م/ ٣٨١ هـ)

(جيلبرت يعبر المسرح، إلى جانب سياج القصر، في حين يدخل يوسف).

يوسف: أخيرًا. لقد بحثت عنك في قرطبة كلها.

جيلبرت: إنني بين يديك.

يوسف: أكدوا لي أنك كنت في بيتشينا، وكنت على وشك...

جيلبرت: كانت لدي النية في الرحيل، لكنه لم يكن ضروريا.

يوسف: خيراً فعلت، فالمكان هناك ليس آمناً.

جيلبرت: لماذا؟

يوسف: منذ أن أعلنوها جمهورية مستقلة، يذهب الأشرار والكفار إليها بحثًا عن ملجأ.

جيلبرت: كنت أفهم أنها منطقة موقوفة على بني مسرة.

يوسف: هذا هو بالضبط.

جيلبرت: أعرف واحداً منهم ولا يبدون لي أناسًا خطرين.

يوسف: لا؟ إنهم يمارسون الجنس بحرية.

جيلبرت: **(بتباطؤ وسخرية)** وهل هذا يبدو لك سيئًا؟

يوسف: كما أنهم شيوعيون.

جيلبرت: شيوعيون؟

يوسف: نعم، يعارضون الملكية الشخصية.

جيلبرت: أفهم أن هذا يغضبك.

يوسف: لكن فلنترك هؤلاء المفسدين. **(بسرية)** لدي أخبار.

جيلبرت: **(يغير تصرفه تمامًا)** عن الكتاب؟

يوسف: لم أكن أقدر على أن أحكي لك شيئاً في حضور المنصور، إلا أنني أعتقد أنني أعرف أين يوجد.

جيلبرت: ألم يحرقوه؟

يوسف: عندما وقع التهذيب، أشعل رؤساء الخدم نارًا إلى جوار بركة الريحان، وهناك أحرقوا ما ألقوا لهم به من كتب المكتبة.

جيلبرت: إذن؟

يوسف: تحلَّ بالصبر. على ما يبدو أنه مع الريح وصلت الدخان إلى حدائق الحريم. وأمام رغبة المنصور في عدم سماع المحظيات، اقترح بإشعال النار على الضفة الأخرى، وهو ما اعترض عليه الفقهاء خوفًا من ضياع بعض المجلدات في أثناء نقل الكتب. وأخيرًا اتفقوا على الإلقاء بها إلى البئر التي جنب الجُب وتغطيتها بالأحجار والتراب.

جيلبرت: إذن ماذا ننتظر؟ فلنذهب لنخرجها من البئر.

يوسف: الوقت متأخر جدًا. لقد سبقنا آخرون.

جيلبرت: من كان يعرف...؟

يوسف: في تلك الليلة رشا موظف من القصر رؤساء الخدم، حفر البئر وحمل بعض المهارق.

جيلبرت: لكنه ربما كان كتاباً آخر.

يوسف: هل كانوا يخاطرون ليقطعوا لهم أيديهم من أجل أية مهارق؟

جيلبرت: ربما عندك حق.

يوسف: لقد حاولت الوصول إلى المخطوط دون إثارة شكوك.

جيلبرت: ولكن هل تعرف من نبشه؟

يوسف: لا يُخفى شيء على وزير مالية.

جيلبرت: ما العمل؟

يوسف: لا توجد طريقة لدخول المنزل. هذا رغم كل ما أرسلت من البائعين الجائلين أو مشعلي مصابيح الشوارع أو التجار، فقد منع ابنته من فتح الباب لأي شخص.

جيلبرت: فيم يعمل؟ فربما يكون حجة...

يوسف: إنه حاخام ومترجم مكتبة قصر الخليفة.

جيلبرت: (بسرعة) مويس بن حنوج؟

يوسف: أتعرفه؟

جيلبرت: إذن بلا شك. فحسب ما حكوا لي، كان والده هو الذي حمله معه عندما أسروه على شواطئ صقلية.

يوسف: هذا مطابق. لكن، من حكى لك هذا؟

جيلبرت: الواقع أن المهارق ضاعت في قرطبة و"بمساعدة" بني مسرّة – كانوا من أبلغني بذلك. كان المخطوط في حوزتهم حتى بعد ذلك بعام، ثم ضاع مجددًا، ليقع في يد تاجر. وفي السوق شهد وكيلي كيف باعه إلى الحاخامات، وإن كانوا على ما يبدو تظاهروا أنه اقتناء لمكتبة القصر، فبذلك يصبح في مأمن. ولهذا من المنطقي أن يكون ابن حنوج هو الذي أنقذه من الحرق.

يوسف: على ما يبدو كانت شكوكي مؤكدة أكثر مما كنت أعتقد.

جيلبرت: كل هذا يتطابق. ويجب أن أجد الطريقة التي أحصل بها على المهارق.

يوسف: هذا هو.

جيلبرت: هل يعيشان وحدهما؟

يوسف: نعم؛ حسب معلوماتي.

جيلبرت: آمل ألا أكون قد فقدت مهاراتي في مجال الإغواء.

يوسف: (مازحًا) أعترف بأن ... مثل هذه الفكرة لم تخطر لي على بال.

جيلبرت: ما عمره؟

يوسف: أكثر من ثلاثين. إنني أبلغك أنها ليست جميلة.

جيلبرت: هذا في مصلحتنا.

يوسف: لا تزال مجنوناً مثلما كان عمرك عشرين عامًا.

جيلبرت: هل يعيش في حي اليهود؟

يوسف: في عطفة شارع غريب جدًا.

جيلبرت: خذني إذن إلى بيته لأتيقن بنفسي من هذا المكان الخفي، ربما كانت هناك ضرورة للهرب. سأراقب الساحة غدًا لحظة خروج الحاخام.

يوسف: سأكون هناك قبل شروق الشمس، فإنني لا أفكر في ضياع هذه الفرصة.

(إشارة فيها اعتراض من قبل جيلبرت)

يوسف: وإن كان بطريقة متحفظة.

جيلبرت: من الأفضل ألا يرونا معاً مرة أخرى.

يوسف: أتفكر في أن نذهب دون أن ننفذ اتفاقنا؟

جيلبرت: يمكن أن تكون هناك طائفة مرتبطة بالكتاب. وإذا كان هكذا فمن الأفضل ألا يربطوا بيننا بحيث إنه في حالة الطوارئ يمكن أن يسعادونا بشكل أفضل.

يوسف: يبدو معقولاً.

جيلبرت: نعم، فإذا كان.الأمر كما أتوقع أن في هذا الكتاب كنزًا كبيرًا سأحتاج إلى مساعدتك لإدارة كل هذه الثروة. **(مستجيبًا لردة فعل)** إلا إذا كان العمل مع مسيحي قد يثير تحفظًا دينيًا لديك.

يوسف: أبداً، فديننا لا يتدخل في هذه الأمور. الواقع أنني ولدت في برشلونة وكما ترى فإنني أعمل للخلافة.

جيلبرت: إذا كان الوضع هكذا فإننا سنلتقي في روما.

يوسف: إنني متعب إلى حد ما للسفر إلى إيطاليا، لكننا سنجد من يقوم على مصالحنا، وإن كنت أرى أنه لا داعي لأن يشغلنا هذا الأمر في الوقت الراهن، فالأخذ بعين الحسبان مساعدة ومشورة رأس الشيطان لا يوجد حليف أحسن لرجل مال.

(بينما يضحك جيلبرت ويوسف ويهمان بالخروج يحل الظلام)

المشهد الرابع

(قرطبة، ٩٩٧ م/ ٣٨١ هـ)

(جيلبرت وسارة يتحدثان والباب بينهما).

جيلبرت: ألا تعرفين متى سيعود؟

سارة: عادة ما يعود في الليل.

جيلبرت: لم يقل لك عن موعد وصوله.

سارة: لم يقل لي شيئًا.

جيلبرت: يا لها من مشكلة. لقد نسي بلا شك أنه أرسل يطلبني لأمر بقرطبة كي آخذ لفافة مهارق.

سارة: نعم إنها مشكلة، لكنني لا أستطيع عمل أي شيء.

جيلبرت: إنها مخطوطات غريبة، كان يريد أن أنسخها له. لا بد أنك رأيتها.

سارة: ربما تكون في غرفة نومه، لكنني لا أستطيع أن أؤكد ذلك.

جيلبرت: هل لحسن الحظ أنت ابنته سارة؟

سارة: هل تعرف اسمي؟

جيلبرت: لقد أشار إليك في أكثر من مناسبة في رسائله مطريًا صفاتك.

سارة: إنه إطراء أب، يقوم على الحب أكثر منه على الحقيقة.

جيلبرت: لم يكن هذا انطباعي، فمراسيله موحية مع أنها حذرة في المجاملة، وبينما كنت في طريقي إلى هنا فإن استدعاء ذاكرتي لها لم يكن لخيالي أن يتصور امرأة بهذه الهيئة والحال.

سارة: إنني أفهم من كلامك أنك شاب يتمتع بهواية المحادثة والمغازلة.

جيليرت: لا، لسوء حظي أنا رجل ناضج وقليل الحذق في فن المغازلة، لقلة خبرتي بالدنيا وخجلي.

سارة: خجول؟ إنك لا تبدو خجولاً.

جيلبرت: إذا لم تكن هذه البوابة في الوسط، إذ إنها لسوء حظي تحول دون نظرتك إليَّ، لما قدرت على نطق كلمة واحدة.

سارة: إنني أتمنى أن أشهد مثل الأعجوبة، فلا يدخل في رأسي أن رجلاً بتعبيراتك يمكن أن يبقى صامتًا أمام نظرتي.

جيلبرت: غير قادر على أدنى غزل. ويصل خجلي إلى درجة أنني أتلعثم في حضور امرأة. وهذا يحدث أكثر إذا كنت أنت التي تنظرين إلي.

سارة: فليكن هكذا، ولكن لا تنكر أن هذا أمر غير عادي.

جيلبرت: سترين ذلك إذا لم يكن مستحيلاً لي أن أنتظر والدك حتى عودته.

سارة: (منزعجة قليلاً) هل أنت على عجل في الرحيل؟

جيلبرت: علي أن أصل اليوم إلى بلدة إلبيرة حيث يجب أن يعطوني بعض التوصيات.

سارة: (مستاءة.) نعم إنها مشكلة.

جيلبرت: لم أكن لأتخيل هذا قط، فلا أفهم تعاسة أكبر من كوني على مقربة منك ولا أستطيع أن أستمتع بعذاب نظرتك.

سارة: يمكنني أن أنظر إليك من النافذة، إذا كان يروقك أن تتعذب بهذا الشكل.

جيلبرت: هل ستفعلين هذا من أجلي؟

سارة: إنني لا أخاطر بشيء عند فتح البويب. وإذا كنت بهذا أقدم علاجًا لمسافر راجل...

(تفتح سارة بويب البوابة وتظهر محياها، وكما أبلغه يوسف ليس جميلاً. جيلبرت يتمالك نفسه رغم تأثره بشدة قبحها)

جيلبرت: يا أيتها النجوم والكواكب، أيتها النجوم المرتعشة في السماء، كيف تعرفين كل هذا الجمال ولم تشرديني كالنيازك للقاء الحبيبة؟

سارة: هل أنت تتلعثم أمام حضور امرأة؟

جيلبرت: **(متصنعاً الدهشة)** لا أدري ماذا حدث. إنني لم أستمتع بمثل هذه الرؤية في حياتي.

سارة: يمكنني أن أصدق هذا. **(عن قصد)** وإطلاق رؤية عليه يبدو لي موفقًا.

جيلبرت: إنني دَهِشٌ. فابتسامتك لا تخيف ولا تفزع.

سارة: **(بعد أن تفحصته ملياً بنظراتها)** يبدو أنك رجل متزن ومؤدب. حقيقي أنك ناضج إلى حد ما، ومع أنك لست للكثير من المخاطر في هذه الحياة فإنك لا تزال قادرًا على بعضِ الأداء، على السير. ليس خببًا ولكن مشيًا، فالمهم هو الوصول. حسنٌ والآن لا أفهم كيف أنك أخبرتني بعيوب ليست لديك، وعلى العكس أخفيت عني أنك أعمى.

جيلبرت: أعمى؟

سارة: إن لم يكن الأمر هكذا، فكيف لم تدرك قبحي؟ أو أنك مخادع تحاول إغوائي، وهل هذا سبب المداهنة؟

جيلبرت: طيب، أنا... أنا... أنا..

سارة: مرحى، أخيرًا تتلعثم!

جيلبرت: ربما تماديت عند التعبير عما في نفسي حسب كتب الحب، لكنني لم أقل سوى الحقيقة.

سارة: لا يجب أن تسير وراء أية تعليمات، وعندما تفضي بما في داخلك فإن هذا يزيد من ظرفكم ومعه الخطر.

جيلبرت: خطر؟ قولي لي أية كلمة عرضتك للخطر حتى لا أكررها.

سارة: خطر، نعم، ولكنه ليس ما تتخيله، فلا أريد أن أفرح بمغامرات ومغازلات خوفاً من ألسنة من يمكن أن يشاهدوننا.

جيلبرت: إذا كان هذا هو ما تخشينه فإنني أعتبر أن سعادتي انتهت، فلا أريد أن أسيء إلى سمعتك بحماقتي. وإذا لم تمنعيني من ذلك فإنني مضطر إلى السفر إلى إلبيرة.

سارة: مسكينة أنا، كيف يمكنني أن أمنعك من الرحيل؟

جيلبرت: بمنحي فرصة للبحث عن المهارق التي نسي والدك أن يعهد بها إليك.

سارة: إذا كان الأمر هكذا فلن أسمح برحيلك دون هذه المهارق، كي لا يوبخني أبي على هذا الأمر. (تهبط من الكوة وتفتح له البوابة.) أدخل وابحث هناك كيفما تشاء ولنرَ ما تجد. (**تظهر قبحها بوقاحة**) أتشك؟

جيلبرت: كيف لا أعبر ما يبشر بأن تكون بوابة الجنة.

(يدخل جيلبرت البيت)

سارة: آمل ألا تخيب ظني بعد كل هذه الجسارة.

جيلبرت: لا عليك، فلن أجرؤ على الاعتداء على وقارك.

سارة: (**في نفسها**) يا لها من خيبة. (**وتغلق البوابة**)

جيلبرت: من أين أبدأ البحث؟

سارة: (**بمرح**) في السرير.

جيلبرت: (**بجفاف**) في السرير؟

سارة: نعم، في السرير، أظن أنها قد تكون بين الوسائد. فليلة أمس، في الفراش، شاهدت كيف كان أبي يعده بدقة، ربما يجهزه لك.

جيلبرت: في هذه الحالة لا يجب أن نضيع الوقت ولنذهب إلى السرير.

سارة: بهذه الطريقة، يبدو أن النية مختلفة. **(وقفة)** اتبعني لنبحث، فقد نصل إلى نتيجة واضحة.

جيلبرت: هيا.

(يصلان إلى الفراش: سارة تنحني وتبحث بين الوسائد، في حين يظل جيلبرت واقفًا)

سارة: **(تعرض عليه لفافة)** هل تعتقد أن هذه هي؟

جيلبرت: (واثباً.) دعيني أرى.

سارة: اجلس بجانبي وهكذا نقرأ معاً.

جيلبرت: **(مبتعداً دون أن يتباعد)** هل يقول إن ذا النون هو الذي كتبه؟

سارة: **(تتيقن)** نعم، هذا مكتوب هنا. ولكن اقترب وتفحصه أنت بنفسك. **(تعانق رجليه)**

جيلبرت: علينا أن نحافظ على المسافة، وإلا لن أستطيع الوفاء بوعد احترامك.

سارة: إذا كان الأمر هكذا فإنني أعفيك من أي التزام.

جيلبرت: سيؤلمني أن تفكري أنني حاولت خداعك.

سارة: لا عليك. فلا يوجد من يخدعني إذا كنت أنا لا أريد.

(سارة تشده بقوة وتلقي به على السرير)

جيلبرت: **(في السرير ينازعها للحصول على اللفافة)** دعيني أراها.

سارة: من الأفضل أن أحفظها. **(تضعها تحت الوسادة)**، فسيكون عندك وقت للاستمتاع بها، على عكسي فإن المتعة التي قد تؤديها لي هذه المهارق إذا لم تكن الآن فلن أستمتع بها أبدًا. **(تثب عليه)**

جيلبرت: (**يحاول الهرب**) ضعي في حسبانك أن أباك قد يصل وسيكون أمراً شائكاً أن يفاجئنا ونحن في هذا الوضع.

سارة: لا تقلق، فعندما يصل ستكون قد رحلت إلى إلبيرة ومعك المهارق، فعادةً لا يعود قبل حلول الليل، وإلى أن يأتي هناك وقت كي ترتاح المرات التي تريد والتي تقدر على أن تتعب فيها.

جيلبرت: (**متضرعًا**) إنني بهذا العمل أسيء إلى الخالق.

سارة: لا تخف، فهو ليس أعمى ويعرف مفاتني، ومن منطلق عدالته الواسعة لن يسجلها لك بين الخطايا، بل بين أعمال الشفقة..

(وبينما جليبرت يستسلم، يحل الظلام)

المشهد الخامس

(قرطبة ٩٩٧ م/ ٣٨١هـ)

(في كهف آخر في جبال قرطبة، ابن مسرة وجيلبرت يتحدثان جالسين على الأرض،في حين يربط بشريط اللفافة التي قرأها توًا).

ابن مسرة: والآن؟

جيلبرت: كان عندك حق.

ابن مسرة: مع أن الكتاب منغلق فإنه يفتح بابًا لمن يقترب منه بمفتاح.

جيلبرت: بينما كنت أقرؤه شعرت أنه كُتب لي.

ابن مسرة: إن الكون ينتظر أن يُكتشف، ولكنه يحتاج جهدنا. ولقد ثابرت في مهمتك.

جيلبرت: لم أتصور قط أن يجيب عن تساؤلاتي بهذه الطريقة الصائبة.

ابن مسرة: في فقرة الكنز، أم أنني أخطئ؟

جيلبرت: إن أحلامي وقراءته تتكاملان كأجزاء من واقع واحد (**ذو النون يشير إلى تمثال لتوت.**)

ابن مسرة: الرجل الذي له رأس طائر.

جيلبرت: نعم، مثل أحلامي. (**وقفة**) وحسب المخطوط فإن التمثال يشير إلى مكان، يؤكد حسب نقش أن فيه كنزًا مدفونًا. بينما الجميع يبحثون في هذا الاتجاه يكتشف، بعد فك طلاسم برديات، أنه لا يجب الحفر في اتجاه اليد، بل يسقط ظلها عندما تصل الشمس إلى السمت.

ابن مسرة: إنها فقرة جميلة حصلت منها على ثروات عظيمة، وإن لم أحصل علي أية قطعة عملة ذهبية.

جيلبرت: بالنسبة إليَّ لا يوجد وضوح أكثر من هذا.في حدائق تيفولي، القصر الصيفي لقدماء الأباطرة الرومان، يوجد تمثال لعُطارد تشير يده إلى ربوة. في قاعدته توجد كتابة كانت في قدمي توت: "إن الذي ينقب سيجد كنزًا". (وقفة) فكما تعلم الرجل ذو رأس طائر الذي كان يطلق عليه المصريون توت، واليونانيون هيرمز، كان في روما مبجلاً على أنه عُطارد.

ابن مسرة: هل التمثال معروف؟

جيلبرت: لا يوجد روماني خلال القرون الأخيرة لم يحفر في ذلك المكان. وبهذه الطريقة، بعد تحريك الأرض مرات عديدة، غيروا الربوة من مكانها كثيرًا.

ابن مسرة: ماذا تنتظر أن تعثر عليه؟

جيلبرت: ذهب الإمبراطورية، هذا هو المعتقد الشائع. يبدو أن هونوريوس هو الذي خبأه هناك عندما حدث سلب روما. (وقفة) إنه لمن الغريب، بعد ستة قرون، أن يؤدي ذهب إمبراطورية مسيحية إلى إعادة توحيد العالم المسيحي ويحقق انتصار الروح على الشر.

ابن مسرة: إنها لغريبة هذه العلاقة بين الذهب والروح. على أية حال يبدو أن المهارق كُتبت لك، وكذلك لي.

جيلبرت: لكن، حسب قولك، فإن كنزك ذو طبيعة مختلفة. (وقفة) أم أخطأت؟ ألا يمكنني الوصول إليه؟

ابن مسرة: تحتاج إلى مفاتيح أخرى.

جيلبرت: معارف أخرى؟

ابن مسرة: أهداف أخرى. انتبه أن الرجل ذا الرأس الطائر، وهو كل ما أستطيع أن أقوله لك، إذا كان يشير إلى

أن كنوزه كانت مخبأة بعيدًا، فالواقع أنها كانت على مقربة منه. فكر فيه إذا كنت تريد فك رموز الشفرة الحقيقية لمعنى الرأس اللامع.

جيلبرت: هل تعني أن المعرفة هي الثروة؟

ابن مسرة: لا تستعجل. لديك متسع من الوقت للتأمل.

جيلبرت: المخطوط يقدم إجابة دقيقة عن سؤال محدد، غير أن أسئلة أخرى تنبثق من قراءته.

ابن مسرة: عندما تحصل على الذهب، فإن أفعالك سوف تنعكس فيه كما لو كان مرآة. حينئذ إسأل نفسك، أمام صورتك، ما الذي تريده بالضبط، عمَّ تبحث. وجهز الأجوبة لأن الأسئلة ستكون سريعة.

جيلبرت: أتتكلم معي بطريقة ملغزة أيضًا؟

ابن مسرة: لا يوجد لغز لشيء، كما أن كل شيء مشفر للكل. كل شيء متشابك، وما يوجد خارجنا، موجود بالشكل نفسه داخلنا، بحيث إن معرفة خارجنا يعني معرفة داخلنا.

جيلبرت: ربما قد يعني شيئًا معكوسًا؟

ابن مسرة: ربما يعني شيئًا. ومن السهل العثور على الصلات لمن يريد أن يعثر عليها، بنفس درجة استحالة من يرفض إقامة علاقة.

جيلبرت: سأفتقدك. وإن كان فقط للأسئلة التي تثيرها أجوبتك.

ابن مسرة: لقد تكلمنا عن أشياء كثيرة. ولا أنا لدي أجوبة للكل، ولن تجدها. ومع ذلك فمن خلال حقائق بسيطة بيننا جميعًا يمكننا أن نكشف عن الحقيقة. **(وقفة قصيرة)** والآن يجب أن ترحل. فعندما يعرف مويس أن المهارق سرقت سيرسل برجاله بحثًا عنك.

جيلبرت: لا أظن ذلك. إنه لا يعرفني.

ابن مسرة: إنك في قرطبة منذ ثلاثة أشهر تسأل العالم كله عن اللفافة، فهل تعتقد أنك غير معروف الآن؟

جيلبرت: عندك حق.

ابن مسرة: إن أول شيء سيقومون به هو الحضور إلى هنا.

جليبرت: قلت لابنته إنني راحل إلى إلبيرة.

ابن مسرة: عليك أن تكون حذرًا. اترك أثرًا واضحًا، وعندما تصل إلى الجسر جانب أشجار الحور، اختبئ في القوس الثالث. هناك ستسمعهم يخبون فوق رأسك، لكنهم لن يستطيعوا عمل أي شيء. وتحت جنح الليل، وفي صمت، تعود القهقرى، وأية طريق ستؤدي بك إلى روما.

جيلبرت: كثيرًا ما أبعث يوكلائي إلى الأندلس لاقتناء كتب في مختلف المعارف. قد أحتاج إلى مشورتك من خلالهم.

ابن مسرة: يسعدني أن أعرف أخبارك.

جيلبرت: هذا ما سأفعله. عمن يجب أن أسأل؟ إنني أجهل اسمك.

ابن مسرة: ابن مسرة.

جيلبرت: **(غير مصدق)** ابن مسرة، ابن مسرة في جيان؟

ابن مسرة: هذا هو.

جيلبرت: لكن... ابن مسرة توفي.

ابن مسرة: إنك تراني أمامك.

جيلبرت: ليس ممكنًا. فالرجل الذي تتكلم عنه مات منذ زمن بعيد. وأكثر من هذا فإنه إذا كان حياً لكان عمره أكثر من مائة عام.

ابن مسرة: ذو النون مات منذ مائة وخمسين عامًا، ومنذ لحظة كان يُسيرُ إليك.

جيلبرت: ليس الشيء نفسه. كان مخطوطًا.

ابن مسرة: الرجل الذي يفكر وينثر بذوره يبقى حيًا في الآخرين. هناك ضمير نشترك فيه جميعاً، ومن خلال هذا الضمير يُتَوَصَّلُ إلى الخلود.

(مجرد تغيير في الضوء يختفي ابن مسرة – لا يكاد يُرى- خلف ستارة رقيقة، في حين يبقى جيلبرت جامداً للحظات إلى أن يحل الظلام ويسدل الستار).

الفصل الثالث

المشهد الأول

(معسكر أوتون الثالث، ٩٨٨ م)

(أمام سرادق حملة الإمبراطور يجلس جيلبرت وأوتون الثالث على مقعدين ذوي مسندين، يتحدثان إلى المستشار وهو واقف).

مستشار: ذهب ليلمحنا ورفعوا باب الحصن.

جيلبرت: هل نبهكم أحد الجواسيس؟

مستشار: لا. لقد مشّط المنطقة، وأرسلت قواتًا إلى كل مكان يحتمل أن يختبئوا فيه.

أوتون الثالث: (إلى جيلبرت.) حسنٌ. فقد سمعت. ماذا تعتقد أننا يجب أن نفعل؟

جيلبرت: المشكلة ليست البابا الزور، بل من يسانده.

أوتون الثالث: ومع هذا وجب العقاب. إنه وقت عصيب، فقد كان قريبًا منا جداً.

جيلبرت: إذا كان صديقًا لوالدتك ومربيك، فهذا أكثر من سبب كي نتحالف مع كريسشنزيو. إنني أصر على ذلك، وأعتقد أنه وصلت لحظة استئصال الداء من جذوره.

مستشار: فلنجعل فضحه يتصادف مع وصول الإمبراطور.

جيلبرت: كنت أعني بذلك الاستيلاء على سانت أنجلو.

مستشار: إنه موكب شائن، فاستعراض جثة البابا الزور مشوهة سيؤدي إلى تدمير معنويات المحاصَرين.

جيلبرت: ممكن، وإن كنت أعتقد أن إهانة خوان السادس عشر يؤدي إلى نتيجة. فمن يجب أن يُفضح هو كريسشنزيو.

أوتون الثالث: (مغيرًا الموضوع.) وتأخير وصولنا إلى روما؟ فبهذه الطريقة نعطي متسعًا من الوقت ليلتقينا غريغوريوس الخامس كي ندخل المدينة معًا.

جيلبرت: لن يروق هذا سكان روما. لم يتعودوا بعد فكرة وجود بابا جرماني. ومع هذا فإنها مساندة لا يمكنك أن تنكرها عن ابن عمك.

أوتون الثالي: هل يعني هذا أنك توافق أو أنك تنصحني بالقيام به حتى إن لم توافق أنت؟

جيلبرت: لم أخفِ عنك قط أنني كنت مؤيدًا لتعيينه، نظرًا إلى العلاقة الأسرية.

أوتون الثالث: لقد تم الاختيار حسب خطتك. ولا توجد طريقة للجمع بين السلطتين أفضل من أن تكون عبر الجذر العائلي نفسه.

جيلبرت: إن وحدة السلطات لا يجب أن تعني تبعية واحدة للأخرى، وهو ما فعلتموه بتقديس ابن عمك. إنه البابا ويجب أن تعاد إليه سلطته. (وقفة) لهذا ذهبت إلى جرمانية لتحذيرك من الفتنة.

أوتون الثالث: (إلى المستشار) هل هناك قوات تحاصر سانت أنجلو؟

مستشار: الحصار على ما هو عليه منذ أن علمنا بوصولك، فلم يعطَ أمر بعد بالاقتحام، وذلك كي يتصادف مع دخولك روما.

جيلبرت: ربما ليست هناك ضرورة لإقامة معركة. ففي داخل سانت أنجلو هناك أكثر من حصان طروادة.

أتون الثالث: هل حصلت على بعض الوعود؟

جيلبرت: عند عودتي من الأندلس، استطعت أن أتحدث بعض الأعيان النافذين بين نبلاء روما. غالية الأسر – آل توسكول من بينهم- توافق على طريقة حكم كريسشينزيو التعسفية للنبلاء. لا أريد أن أقول بهذا

إنهم يرتاحون لوجود بابا جرماني – فمع أنهم لا يفصحون عن ذلك علانية، فجميعهم يطالبون بحقهم في انتخاب الحبر الأعظم-، ولكن على الأقل هؤلاء يطيعون إرادتك. (**بعد إشارة ملتبسة.**) بهذه الطريقة يمكن القول إن تحالفًا ما أقيم.

أوتون الثالث: إنه لخبر رائع. (**إلى المستشار.**) أليس كذلك؟ (**إلى جيلبرت.**) بقي أن نقرر ماذا نفعل بالأسير. (وقفة.) الحب لمربيّ يجعلني أميل إلى الرفق، لكن جسارته في تنصيب نفسه بابا بمساندة أعدائي تحملني على أن أكون قاسيًا. سأحاول أن أكون عادلاً.(**وقفة.**) سنحترم حياته، وإن كان ستلحق به بعض البتر. (**إلى جيلبرت.**) ما رأيك؟

جيلبرت: إنه قرار صائب.

أوتون الثالث: (**إلى المستشار.**) فكرتك في الطواف به ستترك أثرًا في العوام، لكن ليس أمام سانت أنجلو، كي لا تؤدي رؤيته إلى إلهابهم، وذلك دون رغبة في النيل من معنوياتك.

مستشار: ماذا ستبترون من أعضائه؟

أوتون الثالث: لا أدري. في حالة الخيانة جرت العادة على بتر الأذنين، الأنف، العينين. آه، واللسان، يستخرج بملقط ويبتر من الجذر.

مستشار: واليدان؟

أوتون: لا، فلا داعي إلى التنكيل. واحذروا أن يموت.

جيلبرت: وليكن هناك حكيم كي يكوي جراحه.

أوتون: نعم، هذا أفضل. (**إلى المستشار.**) بعد ذلك احمله إلى روما، وجهزوا كل شيء للموكب، بحيث أنه عندما نستولي على سانت أنجلو يمكننا الاحتفال بشين النبلاء وباباهم الزور.

مستشار: سيتم عمل ما تقولون.

أوتون الثالث: ضع الوسائل الضرورية أيضاً كي يصاحبنا غريغوريوس الخامس عند دخولنا روما.
(يخرج المستشار بعد انحناءة احترام.)

أتون الثالث: **(يلتفت إلى جيلبرت.)** إنني أوافق الرأي: يجب استئصال الشر من جذوره.

جيلبرت: إذا ما كان قد تم التعامل معه بهذه الصرامة منذ البداية...

أوتون الثالث: **(يقف.)** إنني أنفذ توصية والدك.

أوتون الثالث: وإن كان الأمر هكذا فلك الشكر. **(يهم بدخول السرادق، لكنه يلتفت إلى جيلبرت.)** إن الحكم صعب.

جيلبرت: نعم.

أوتون الثالث: لم ترتعش يدي قط أمام موت عدو، ولكن إقامة الحد على صديق يؤدي إلى اضطراب. **(وقفة.)** فقد يكون انتقامًا.

جيلببرت: إنني أفهم حزنك.

أوتون الثالث: ألا نكون قد تمادينا؟

جيلبرت: لقد أساء إلى العالم المسيحي، وإلى الإمبراطورية. ماذا يمكن أن تفعل إن لم يكن تنفيذ عقاب عادل؟

أوتون الثالث: قد يكون الحق معك.

جيلبرت: ومع ذلك، إذا كان هذا الأمر يعذبك، انسَ أنه ثار عليك، وفكر فقط في إهانته للبابوية.

أوتون الثالث: هذا هو ما سأفعله.

(أوتون الثالث يدخل السرادق. وعندما يهم جيلبرت بالرحيل، يكشف الضوء عن ابن مسرّة، فيظلان وجهًا لوجه ويحل الظلام.)

المشهد الثاني

(روما ٩٩٨ م)

(أتون الثالث جالس على مقعد كبير فوق منصة صغيرة، في برج فيه شرفات في قلعة سانت أنجلو، حيث يترأس المحكمة. إلى جانبه يقف غريغوريوس الخامس. وعلى جانبي المنصة يقف جيلبرت وتوسكولو والمستشار. وأمامهم عدة رجال بلباس جنود رومان يحرسون مجموعة أسرى من النبلاء، في حين يقف خوان السادس عشر مبتوراً بشكل فظيع. البابا الزور يسنده راهب، إذ دون ذلك سيسقط على الأرض.)

أوتون الثالث: **(إلى خوان السادس عشر.)** إنك ترى إلى أين أدى بك طموحك. أمي، الملكة نيوفانيا، غمرتك بالمكارم والدرجات الكهنوتية الراقية، إلا أنك لم تقنع بدير نونانتونا ولا أسقفية بيانسنزا، كنتَ تطمع في سُدة بطرس.

غريغوريوس الخامس: هل كنت تعمل بأمر من إمبراطور بيزنطة؟

يوحنا السادس عشر: **(ينفي بحركة برأسه، وهو يئن.)**

أوتون الثالث: طبعاً. قرأت مرافعتك. (بسخرية.) لقد قمت بهذا لأن البابا كان هارباً.

غريغوريوس الخامس: هل هناك هراء أكبر من هذا؟

يوحنا السادس عشر: **(يصدر صوتاً حلقياً قصيراً.)**

أوتون الثالث: من أجل إنقاذ الفاتيكان من اختلال الحكم في روما.

يوحنا السادس عشر: (**يؤكد برأسه.**)
غريغوريوس الخامس: أتزمع أن أصدق أنك لم تكن تعرف من الذي أجبرني على الهرب إلى إيطاليا العليا؟
يوحنا السادس عشر: (**يهمهم وينفي برأسه.**)
أوتون الثالث: (**غاضباً.**) هم أنفسهم الذين أثاروا المدينة ضد الإمبراطورية.
يوحنا السادس عشر: (**ينفي يائساً برأسه، ويصدر أصواتًا حلقية.**)
أوتون الثالث: لقد استوليت بالدسائس ما لم تكن تحققه عن استحقاق في حياتك كلها. (**وقفة.**) من العدل أن يحكم عليك بالخازوق في الساحة العامة وتركك للكلاب تنهشك. ومع ذلك فإن ذكرى السنوات التي علمتني فيها اللغة اليونانية تحرك الرأفة داخلي.
غريغوريوس الخامس: الإمبراطور يمنحك العفو الدنيوي. ولكنك ستتعرض لحكم الله، وعليه فبعد الشين سيتم عزلك في دير وهناك يمكنك أن تؤدي الكفارة إنقاذاً لروحك.
أوتو الثالث: فليرحمك الله. (**إلى المستشار.**) يجب أن يعرض في موكب بين ليتران والفاتيكان ومن الفاتيكان إلى ليتران. وليكن طريق زهوه هو نفس طريق إذلاله.
يوحنا السادس عشر: (**يعوي بطريقة مثيرة للشفقة وكلمات غير مفهومة.**)
(**يقوم الراهب ورجل مسلح بسحب يوحنا السادس عشر خارج القاعة.**)

أوتون الثالث: (**إلى المستشار.**) فليصعدوا كريشنزيو.

(**يخرج المستشار خلفهم.**)

أوتون الثالث: (إلى توسكولو.) أين تعلق المشانق عادةً؟
توسكولو: إنها جاهزة في جبل ماريو.
أوتون الثالث (إلى توسكولو.): كان من الواجب أن تقرر أنت من الذين يعلقون من رقبتهم ومن الذين ضربهم بالسوط. جيلبرت سيقدم لك المشورة السديدة، فهو مثلك يعرف نبلاء روما. (إلى جيلبرت.) موافق؟
جيلبرت: كيفما تشاء.
أوتون الثالث (إلى غريغوريو الخامس، على انفراد.): وعلى فكرة، ذكرني بأن أتكلم مع رئيس مطرانية رافينا.
غريغوريوس الخامس. (باستغراب.): لكن أبراشية رافينا شاغرة.
أوتون الثالث: هذا هو السبب.

(يدخل المستشار وخلفه كريسشينزيو وزوجه، يحميهم جنود رومان. يلقي أحدهم بالزوج تحت قدمي الإمبراطور. كريسشينزيو يبدي ردة فعل، ولكن المسلحين يخضعونه.)

أوتون الثالث: من هذه المرأة؟
كريسشينزيو: زوجي.
أوتون الثالث: (إلى المستشار.) وماذا تفعل هنا؟
مستشار: كانت تحارب إلى جانب النبلاء.
أوتون الثالث: إن استخدام السلاح لا يبدو مناسبًا لك كامرأة.

(ونظراً إلى أن المرأة تحتفظ بوضعها ووجهها صوب الأرض، ينحني أوتون الثالث إلى جانبها ويجبرها على أن تنظر إليه.)

أوتون الثالث: جمالها آسر. هذا هو ما كان يبدو لي. (وقفة.) ألا تطلبين أي صفح؟

امرأة: موتك. **(وتبصق في وجهه.)**
أوتون الثالث: **(ينظف نفسه.)** لا تعجبني النساء في دعاوى الرجال أبدًا.

(يعاود أوتون الثالث الجلوس، في حين تعتدل المرأة على ركبتيها في تحدٍ.)

أوتون الثالث: **(دون غضب.)** لا أدري ماذا أفعل معهن. لا مجال للمغازلة. **(إلى توسكولو.)** لن نخلع مفاصلها الآن.
توسكولو: **(مواصلاً المزاح.)** سيكون أمرًا مؤسفًا.
أوتون الثالث: **(إلى الجميع، بمن في ذلك كريسشنزيو.)** هل يعنّ ببالكم شيء؟
غريغوريوس الخامس: ربما عزلها في دير.
أوتون الثالث: لا بأس بالفكرة، يمكن تنفيذها. **(وقفة.)** أليس لدى أحدكم فكرة أحسن؟
مستشار: بما أنه لم يكن هناك سلب، فيمكنك أن تسلمها إلى القوات كغنيمة.
كريسشينزيو: **(إلى المستشار.)** خسيس!
أوتون الثالث: **(إلى المسلحين.)** ثبتوه على البكرة!

(يتمكن الجنود الرومان من إخضاع كريسشيزيو بسهولة نظراً إلى أنه مقيد اليدين، ثم يربطونه من معصميه بحبل يتدلى من المشنقة.)

أوتون الثالث: **(بقوة.)** لو تفوهت بكلمة أخرى سأمزقك إربًا.
امرأة: إنك جزار!
أوتون الثالث: **(إلى المستشار.)** أما بالنسبة إليها فأنزلوها إلى السجن المظلم كي يستمتع بها الجنود الرومان.
كريسشينزيو: **(ثائرًا.)** إنها من النبلاء. لا يمكنكم أن تعاملوها كما لو كانت عاهرة.

أوتون الثالث: (إلى الجنود الرومان.) مزقوه.
امرأة: (تقفز نحو أوتون الثالث.) إنك قاتل!

(جنديان بملابس رومانية يخضعانها في حين يشد آخران الحبل ممزقين كريسشينزيو.)

كريسشينزيو: (عندما طقطقت عظامه يطلق صيحة ممزّقة.) آه....!!!
امرأة: سأقتلكم! أقسم أنني سأقتلكم!

(بإشارة من أتون يرخي الجنود حبل كريسشيزيو، ومع أنه شاحب ومكسور يتمكن من الوقوف.)

امرأة: يا قاتل! يا طاغية! ستموت ككلب!
أوتون الثالث: (إلى الجنود الذين يمسكون بها.) خذوها من هنا.

(يجرونها بصعوبة. غريغوريوس الخامس وجيلبرت يبديان شيئًا من الامتعاض على الموقف.)

امرأة: **(بينما يجرونها.)** سأقتلك! أقسم أنني سأقتلك!

(أخيرًا يتمكن الجنود من حملها.)

امرأة: **(من الخارج.)** ككلب! ستموت ككلب!

(أوتون الثالث يتقدم ببطء نحو كريسشينزيو الذي يظهر على وجهه الألم والحنق.)

أوتون الثالث: كان بإمكانك أن تكرس وقتك لحكم المدينة. لكنك آثرت السير على خطى أبيك. لم يُفد تدخل صاحب

القداسة (يشير إلى غريغوريوس الخامس.) في إنهاء منفاك. فلحظة رحيلي عن إيطاليا لم تتأخر في طرده من الفاتيكان. بهذا تنتهي أعمال عنف نبيل رئيس نبلاء روما. ولكن ماذا أقول؟ سيادة النبيل؟ أرستقراطيتك نخرها السوس بسبب الخيانة.

أوتون الثالث: سواء راقك أم لا فإن إمبراطورية إيطاليا تخصنا منذ أن تزوج جدي الإمبراطورة أديلايدا.

كريسشينزيو: ربما منحك هذا الزواج حقوقًا في إيطاليا، لكن ليس في هذه المدينة، فروما تُحكم بموجب قوانينها المحلية، وهذا ما يعطيني الشرعية كنبيل. (إلى **توسكولو.**) إنك خائن، فقد تحالفت مع الجرمان.

أوتون الثالث: لا جدوى، فلا نضيع مزيداً من الوقت. (إلى **المستشار.**) فليقم مع الجلاد بالواجب. (إلى **كريسشسنزيو.**) بالنظر إلى كونك نبيلاً سيتم قطع رأسك، مهما كانت سلالتك من الخونة.

كريسشينزيو: سلالتي مخلصة لروما. وما دام أن هناك طاغية من أوتون سيكون هناك كريسشينزيو يثور عليه.

أوتون الثالث: (**إلى المستشار.**) أعدموه في الشرفات[1]. ليُحمل إلى الشرفات.

أوتون الثالث: (**متوجهًا إلى المجتمعين.**) ألم يكن يزمع ضرب عنق الإمبراطورية بإثارة الفتنة في روما؟ فليرَ العوام جسده مفصولاً عن رأسه، كي يعرفوا قيمة الرأس المستقل.

(الجلاد بضربة سيف كبير يفصل رأسه. وبمساعدة الجنود يلقي بجسده إلى نهر التيبر، ويسمع رد فعل العوام الذين يشهدون الإعدام.)

---

[1] شرفة: مكان لرمي السهام والحراسة في أعلى القلاع في العصور الوسطى. (المترجم.)

أوتون الثالث: فلننتهِ من هذا حالاً. (**إلى توسكولو وجيلبرت.**) حاكموا الأسرى. (**إلى المستشار.**) تيقنا من تنفيذ الأحكام.

(يخرج توسكولو والمستشار. الجنود يجبرون الأسرى على الهبوط من البرج. ابن مسرّة، الموجود بينهم، يقف حيث يستطيع جيلبرت رؤيته.)

أوتون الثالث: (**إلى جيلبرت.**) فليكن العقاب مؤلمًا قدر المستطاع.

جيلبرت: (**لا يرفع عينيه عن ابن مسرة الذي لم يلحظه سواه.**) يجب استئصال الشر.

أوتون الثالث: كان على أبي، أو ربما جدي، أن يقضيا على هذه الأسرة.

غريغوريوس الخامس: (**إلى أوتون الثالث.**) هل لك أن تكلمني عن الأسقفية...؟

أوتون الثالث: آه، نعم. (**يقترب من جيلبرت.**) أريد أن أرشح جيلبرت كي يشغل مطرانية رافينا. (**إلى جيلبرت.**) الأسقفية ستكون مكانًا جيدًا لك. يجب عمل الكثير هناك.

جيلبرت: صاحب الجلالة.

أوتون الثالث: (**إلى غريغوريوس الخامس.**) ما رأيك؟

غريغوريوس الخامس: فكرة رائعة.

أوتون الثالث: (**إلى جيلبرت.**) أنا أيضًا أفكر في الانعزال في رافينا. أحتاج إلى الوقت للصلاة وأداء كفارات. (**إلى غريغوريوس الخامس.**) سآمر غدًا بليتران وسنذهب معًا إلى الفاتيكان. فلترنا المدينة ونتأكد من أن أحداً لن يستطيع ضرب وحدتنا.

(يخـرج أوتـون الثالـث وغريغوريـوس الخـامس. كذلك يهم جيلبرت، ولكن ابن مسرّة يمسك بـه مـن كتفه.)

ابن مسرّة: هل هذه هي الأحجار التي تفكر فـي إقامـة جماعتك الروحية عليها؟

(يتجمدان ويحل الظلام.)

المشهد الثالث

(رافينا، ٩٩٩ م)

(صوت مطر وعاصفة بعيدة. في غرفة من قصر الإمبراطور أوتون الثالث، يتحدث إلى جيلبرت جالسًا على طرف المائدة. ابن مسرة خلفه، على مسافة وفي شبه ظلمة، بحيث لا يدرك أحد حضوره سوى جيلبرت.)

جيلبرت: **(إلى أوتون الثالث.)** وعلى وجه الدقة يجب أن نبني جماعتنا الروحية، وإلا فماذا يمكن أن نفعل؟ الإنسان يراوح بين المرغوب والممكن. إننا نطمح إلى تغيير ما يحيط بنا والغريب أنه لا توجد طريقة لبناء أي شيء دون تأسيسه على ما ورِّث لنا، سواء أكان خيرًا أم شرًا.

(ابن مسرة يتجول في منطقة شبه الظلمة.)

أوتون الثالث: إنه دليل قاس. فمع أن روحي تطمح إلى الهدوء، إلا أن السلطة تبلبلني إلى درجة أنني كلما أردت أن أتصرف بعدل أخشى أن يكون الغضب يملي عليّ أفعالي. وإمكانية حدوث هذا يحزنني بشكل كبير ويسرق مني السلام. **(وقفة.)** أعتقد أنني سأنتهي بكره قضايا الحكم.

جليبرت: ألا يكون هذا نداء من الله للعيش في دير؟

أوتون الثالث: لقد فكرت في هذا الأمر. لكنني أدين بالكثير لعائلتي.

جيلبرت: هذا السلام الذي تتوق إليه لن تجده في حكم الإمبراطورية.

أوتون الثالث: ومع ذلك فإنك نفسك تكرر بتواتر أن من الضروري التضحية وذلك بأداء عملنا بإتقان.

ابن مسرة: (**عن قصد.**) هل قلت أنت هذا؟

جيلبرت: (**إلى الاثنين.**) نعم، هذا ما قلته. إتقان ما نعمله يكملنا.

أوتون الثالث: قد أوقف حياتي على الدراسة ... ولكن كيف يمكن الوصول إلى الكمال بإخماد الفتن أو بإقامة الحد على الخونة؟

جيلبرت: في الواقع أن الشر يلوث.

ابن مسرة: ما دام أن الحب، من بين الطاقتين اللتين تحركان الكون، هو الذي يسيطر على أغراضنا فإن الذي يلوثها هو الشر.

جيلبرت: أنا أيضًا أعاني هذا الصراع بين ما أرغبه وما يجب أن أفعله للحصول عليه، ويكمن التناقض الجديد في أن من العدل عمل ما لا أرغب.

أوتون الثالث: لم يمر عام بعد منذ أن أخمدنا فتنة روما وأصبحت هناك مضايقات ومكامن، ولا نعرف من يقف وراءها، هل هم البيزنطيون أو كريسشينزيو أو مواطنوهم.

جيلبرت: إن لم يكونوا هم أنفسهم توسكوليين.

أوتون الثالث: فيم يهم هذا؟ إنهم الآخرون، هؤلاء المجهولون الذين يعارضون بحماسة ما سيكون من المؤكد في مصلحتهم.

جيلبرت: هناك صراع مثبط للعزيمة. فنحن نبذل قصارى جهدنا من أجل التوصل إلى وحدة المسيحيين،

ولكن: هل يريدونها؟ وكيف نقنع ملوكًا وكونتات ونبلاء بالتنازل عن امتيازاتهم من أجل الوحدة التي يرون أنها ضد مصالحهم؟ علينا أن نتصالح كي نتوصل إلى تجديد عظيم. وعلى الكنيسة أن تكون الأولى في التخلي عن امتيازاتها. من هنا جاء إلحاحي على اقتراح مشروع يؤدي إلى التحالف ويعزز الدين.

أوتون الثالث: غزو القدس؟

جيلبرت: نعم، إنه غزو القدس.

ابن مسرة: أترفعون الروح بمحاربة المسلمين؟

جيلبرت: لقد قام المنصور بهذا الأمر. فقد أدى سلبه سانتياغو إلى تعزيز سلطته وحماسة المؤمنين.

ابن مسرة: هل دم المسيحيين رفع درجة روحانية الإسلام؟

جيلبرت: كنت في قرطبة عندما علقوا في المسجد أجراس كومبوستيلا، وشاهدت كيف أن الشعب كان يتلاحم مع قائده وربه.

(بطريقة بطيئة يختفي ابن مسرة في المنطقة شبه المظلمة.)

ابن مسرة: هل تزمعون رفع الروحانية بالنار والحديد؟

أوتون الثالث: عليك أن تتكلم بتواتر أكبر مع صاحب القداسة. غريغوريوس يقدرك كثيراً. حقيقي أن رفضه رفع الحرم الكنسي أدى إلى خلافات ولكن لحسن الحظ حُلت هذه المسألة.

جيلبرت: هذا هو.

أوتون الثالث: كان قرارًا متسرعًا. فشبابه وشبابي حملانا إلى الخطأ، ومع ذلك فإن نصيحتك كانت دائمًا ذات فائدة كبيرة.

جيلبرت: لم تكن هناك ضرورة لمواجهة الكنيسة.

أوتون الثالث: قدم لي مساعدتك مثلما ما قدمتها لي من قبل، فهو أيضًا يؤيد فكرة تحويل الكنيسة. (**وقفة**.) منذ قليل كان يحدثني بحماسة عن إصلاح الكنيسة على يد كلوني.

(يدخل الخادم فجأة.)

خادم: صاحب الجلالة، يصل ناس من روما. لا نكاد نميزهم، ولكنني أعتقد أنني تعرفت إلى مستشاركم.

أوتون الثالث: فيلدخل لحظة أن يصعد. (وقفة.) بسرعة، فماذا تنتظرون؟

(يخرج الخادم في حين تتحول العاصفة إلى مطر شديد.)

أوتون الثالث: إن مجرد معرفة أنهم يأتون من روما يثير قلقي.

جليبرت: هل تخشى فتناً جديدة؟

أوتون الثالث: لا، ما دمنا نعسكر في إيطاليا.

جيلبرت: ما المشكلة إذن؟

أوتون الثالث: ومع ذلك فمن الضروري الرحيل إلى جرمانية، فقد بدأ هناك بعض التذمر.

جيلبرت: إنه مثل محاولة الحفاظ على ماء جارّة دون وجود جارة على الطاولة.

أوتون الثالث: هذا هو ما يحدث. لا يوجد شيء يمسك به ولا يحتويه.

(يدخل المستشار.)

مستشار: لقد توفي.
أوتون الثالث: توفي؟ من الذي توفي؟
مستشار: صاحب القداسة.
أوتون الثالث: البابا؟
مستشار: مات غريغوريوس الخامس.

(**يسمع صوت الرعد بعيدًا.**)

جيلبرت: (**بعد وقفة.**) ولكن كيف؟
مستشار: مسمومًا.
أوتون الثالث: يا شعب من الخائنين! أينما يوجد روماني يوجد سم...!
جيلبرت: هل قبضوا علي القاتل؟
مستشار: لا.
أوتون الثالث: ربما أحد الخدم؟
مستشار: لم يكن يدخل أحد المطبخ دون أن يتمتع بثقته.
مستشار: (**بعد وقفة جديدة.**) هل تألم؟
مستشار: ببشاعة. كان يتلوى لأكثر من ساعة دون أن يتمكن الحكماء من اختيار الترياق المناسب.
أوتون الثالث: ألم يقل حينئذ شيئًا يسمح لنا بـ...؟
مستشار: لم ينبس ببنت شفة. لم يستطع.
أوتون الثالث: ألم يكتب اسمًا، ألم يقم بإشارة...؟ لا أدري، إشارة ما.
مستشار: لا شيء.
جيلبرت: لكن ألا يوجد على الأقل اشتباه؟
مستشار: في ليتران جرت شائعات مفادها أنه يحتمل أن تكون زوج كريسشينزيو.

أوتون الثالث: هل هناك أساس لهذه الشائعة؟
مستشار: أعتقد أنه بسبب اختفائها الغريب.

أوتون الثالث: لم أكن على علم بأنها اختفت.
مستشار: لم يرها أحد منذ الاستيلاء على سانت أنجلو. هناك من يقول إنها ألقت بنفسها إلى النهر، وإن كان من المحتمل أن يكون الجنود الرومان، مع المزاح، وبعد أن استمتعوا بها، قد ألقوا بها إلى نهر التيبر.
جيلبرت: ألم يرها أحد منذ ذلك الحين؟
مستشار: لم تَعُد إلى منزلها، ولم يعثر على جثتها.
أوتون الثالث: لما لم تخبروني بهذا الأمر؟
مستشار: لم يُعدّ أمرًا ضروريًا. هذا بالإضافة إلى أنه عندما وقع الحادث كنتم هنا، في عزلتكم الروحية.
أوتون الثالث: **(إلى جيلبرت.)** غداً سنرحل صوب روما. **(إلى المستشار.)** فلتتبعنا القوات، فربما تكون هناك إضطرابات.
مستشار: سأبلغ الجنود بذلك.
أوتون الثالث: ليكن الجميع مستعدين مع الفجر.
مستشار: آسف لحمل هذه الأخبار.
أوتون الثالث: فعلت خيرًا. والآن اذهب لتسترح، فينتظرنا يوم طويل.

(المستشار ينحني انحناءة سريعة وينسحب.)

أوتون الثالث: **(بعد وقفة طويلة.)** ستأتي معي غدًا.
جيلبرت: هذا ما أفكر فيه.
أوتون الثالث: أريد أن تصحبني إلى المجلس لأنني سأقترح صعودك إلى البابوية.
جيلبرت: أنا...؟
أوتون الثالث: وأريد أن أقوم بذلك قبل أن يكون هناك رد فعل لعائلات روما.
جيلبرت: لكنني... لا أنتمي إلى مدرسة الكرادلة.
أوتون الثالث: ابن عمي لم يكن كاردينالاً أيضًا عندما رشحته.

جيلبرت: كما أنني فرنسي.

أوتون الثالث: هو أيضًا لم يكن إيطاليًا.

جيلبرت: يمكن أن يفهموا هذا الأمر على أنه استفزاز.

أوتون الثالث: إنه استفزاز. لكنني لا أعينك من أجل هذا فقط، فلدي سببان. ليون الثامن منح جدي صلاحية اقتراح أسماء الباباوات، ولن أتنازل عن هذا الحق.

جيلبرت: مع أن الأمر هكذا فإنني لا أدري. إنك تحملني فوق طاقتي.

أوتون الثالث: سنحقق كل ما حلمنا به.

جيلبرت: ألا يجب أن تفكر في الأمر مليًا؟

أوتون الثالث: لقد فكرت فيه كثيراً. (وقفة.) في أكثر من مناسبة فكرت في أنه كان من الواجب اقتراح اسمك بدلاً منه. أعرف أنه لا يجب أن أقول هذا، خاصة في هذه اللحظة. لكنني فكرت فيه.

جيلبرت: عمله كبابا يستحق الثناء.

أوتون الثالث: لم أشكك في قدراته قط أو في حماسته. كل ما هنالك هو أنني كنت أريد أن أحقق مشروعك.

جيلبرت: إذن ماذا حدث؟

أوتون الثالث: ظننت، وهذا كان خطئي، أنه بشبابه سيكون أكثر حماسة. كان يتمتع بهذا، لكن لم يكن لدي مشروعك. (**في سخرية ومرارة.**) وكما ترى فإن القدر يقدم لنا بقسوة فرصة جديدة. حياة الباباوات عاجلة، لهذا أشعر أنني باقتراح اسمك أعرضك للموت.

جيلبرت: ليس أمراً يرعبني. فعندما كنت شابًا وصلت بي الحال أن أطمح في الخلود، لكنني مع التقدم في العمر أصبحت لا أتمسك بالحياة.

أوتون الثالث: (**يأخذه من ساعديه.**) غداً سنبدأ في تحقيق الحلم الذي علمتني إياه.

(يخرج أوتون الثالث ويبقى جيلبرت متجمدًا.)

جيلبرت: يا إلهي. هل سيكون علي أن أؤمن بوجودك في النهاية؟

(تنهمر العاصفة بقوة في حين تتدلى صينية على رأس جيلبرت فيها رأس الشيطان.)

رأس: اخدمني وسأخدمك. تصرف حسب أهدافي وستُلبى رغباتك.

(يغطي جيلبرت أذنيه. صوت ريح قوية.)

رأس: اخدمني وسأخدمك.

(نظرته الخضراء تطوف في الظلام.)

جيلبرت: كان حلمًا! لم أتفق على شيء قط!

(تعود العاصفة لتضرب بقوة.)

رأس: اخضع لسلطتي وسأجعلك الأكثر قوة بين البشر.

صوت ريح شديدة.

جيلبرت: كان حلمًا. حلمًا!
(يجهش في البكاء.)

(برق ورعد وظلام.)

المشهد الرابع

(روما، ٩٩٩-١٠٠٢ م.)

(في شبه ظلام يجلس كل من جيلبرت-سيلفستر الثاني وابن مسرة في مكان خاص بالرهبان.
من باب، في العمق، يدخل شعاع ضوء.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لم أعقد اتفاقًا قط.
ابن مسرة: إذن ماذا يعذبك؟
جيلبرت- سلفستر الثاني: في طفولتي حلمت حلمًا غامضًا.
ابن مسرة: (**ساخرًا.**) يلاحقك كظل طويل.
جيلبرت-سيلفستر: إنه ذنبي، لأنني تباهيت به. (**موضحًا.**) كان هذا من أجل المفاجأة أكثر منه للإقناع، إذا كنت أتسلي بتخويف الجهلة.
ابن الساحر: ومع ذلك فقد تحقق.
جيلبرت-سيلفستر الثاني: لقد حدث! وهذا لا يعني أنه تحقق بأي شكل.
ابن مسرة: إما أن تخاف وإما أن تنفي. ماذا يمزق نفسك؟
جيلبرت-سيلفستر الثاني: فلتعد إلى عقلي صورة الإنسان الآلي. رأس ناطق كانوا يزمعون بيعه لي في الأندلس.
ابن مسرة: رأس الشيطان؟
جيلبرت-سيلفستر الثاني: لا، اختراع عجيب، لا أكثر.
ابن مسرة: هل يشبه الرأس الذي رأيته في الحلم؟
جيلبرت-سيلفستر الثاني: لا يشبهه في شيء. الواقع أنه في بداية الرؤية ظهر وسط سواد ما حملني على التفكير أنه كان خبيثًا، وأكثر من هذا أنه بينما كان يكلمني كان يتحول إلى رأس يطير.

ابن مسرة: لقد اطلعت على مكنون هذا الحلم. ليس رأسًا، بل اثنين يشغلانك، مثل الأمرين اللذين شغلاك ولازماك دائمًا: الوصول إلى الروح والوصول إلى السلطة. فإلى أي واحد من هذين التصميمين تدين بالبابوية. سؤال لا يجيب عنه أحد سواك.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لم أقم بأي عمل في خدمة الشر.

ابن مسرة: ألم تضع السم؟ ألم تتآمر...؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: أبدًا. يمكنني أن أقسم على ذلك.

ابن مسرة: إذن، لماذا هذا الغم؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني:

ربما كان شراء بعض الضمائر، ولكن كان دائماً في خدمة قضية عادلة. (**وقفة**.) كان من الواجب أن تكون وضاءً لكنني أراك غارقاً في الظلمات. (**وقفة**.) كبير قساوسة ربوة العرافة لا يحصل على إجابة من كهف الأسرار. هل أنت بالنسبة إلى الألوهية أقل قبولاً من السحرة الإتروسكيين أو العرافين الرومان؟ هل المشكلة تكمن في أن فاتيكانك ليس موجودًا في أحشاء أية ربوة بل داخلك أنت؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: إنني ظننت أن الوقت سيحل الحياة بشكل مرض وكما ترى فإن قلقي يتزايد مع مرور الزمن.

ابن مسرة: ألا يمكن أن تكون سائرًا في الاتجاه المضاد؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: إنني أحن إلى سنوات الدراسة، والعمل في الورشة: بناء الأسطرلاب، الكرة ذات الحلق، المعداد، صفارة البخار، الأرغن، صندوق الموسيقى، وكثير وكثير من الاختراعات. آه! وساعة البندول. أتذكر حينئذ بينما كنت أقيس الزمن، مقسمًا مضيه، سأصبح سيده. وكما ترى

فإن العصافير، بعيداً عن قياسه، تملك الوقت أكثر مني، فبينما تعيش غير مهتمة، فإنني طمعًا في امتلاكه، بعيدًا عن الاستمتاع بهذه النعمة، انتهيت شاغلاً وقتي في الأعمال التي لم تعطني سوى الهم.

ابن مسرة: وهل كانت النعمة بهذا الحجم إلى درجة أنها دفعتك إلى الرحيل؟

جيلبرت-سيلفستر: التعليم ملاذ أيضًا. إنه غرس في آخرين ما غرسه آخرون فيك.

ابن مسرة: لم تجب عن سؤالي.

جيلبرت-سيلفستر: رغم أنه ليس مثيراً مثل تأمل المخلوق.

ابن مسرة: نعم. من المؤكد أن ماضيك كان مثيراً. لكنك لست ماضيك. فقد تخليت
عن الصمت والآن أنت حكومة العالم.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لا، لا. ليس هذا.

(تفتح الأبواب ويدخل فيض من النور. أوتون الثالث، سيدات، نبلاء وكرادلة يتبادلون أطراف الحديث، رجال بملابس جنود رومان وخادم وغلمان يقومون ببعض الأشغال.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني. (**إلى سيدة.**) ليس هذا أبدًا.

سيدة: لن يكون، ولكن هناك شائعة حول اكتشاف كنز. أعتقد أنه في كامبو دي مارتي. أو كان في حدائق تيفولي؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: أوهام كسالى.

سيدة: إذا وصل إلى علم صاحب القداسة الحكايات التي يحكونها...

جيلبرت-سيلفستر: نعم، إنني أتصورها.

سيدة: يؤكدون أن صاحب القداسة كان في حريم.

جيلبرت-سيلفستر: ليسوا على خطأ تمامًا في هذا الأمر.

سيدة: الحمد لله!

جيلبرت الثاني: (**مرحًا.**) الحمد لله دائماً.

سيدة: (**في غاية الاهتمام.**) هل حقيقي كما يقولون إنهم يعرضون هؤلاء النساء المسكينات لأنواع تعذيب بشعة؟

جيليبرت-سيلفستر الثاني: ليست بشعة إلى هذا الحد. فإذا ما حكيت لك ستدهشين لكم هي ممتعة أنواع التعذيب هذه.

سيدة: آه، احك، احك يا صاحب القداسة، إنني مصغية لك تمامًا.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: يجب أن تعفيني من هذا نظرًا إلى وضعي، لا أعتقد أن من حقي أن أدخل في التفاصيل.

سيدة: (**يعلوها غضب جلي.**) آه.

وينتهز أنه قرب أوتون الثالث، يتخلص جيلبرت-سيلفستر الثاني من السيدة.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: (يسر بكلام، لا يسمعه سواه، إلى أوتون.) كانت تكلمني عن حريم!

أوتون الثالث: (**دهشًا.**) لكن متى كانت هذه السيدة في أراضٍ مسلمة؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: أو بالأحرى، كانت تزمع أن أحكي لها أنا.

أوتون الثالث: لم تكن متحفظة، لكنني لم أفكر أنها كانت لتجرؤ إلى هذا الحد.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: القضية أنه، حسب ما كنا نتحدث عن الأندلس، ظننت أنها فرصة طيبة كي تعرض على هؤلاء النبلاء خطتنا عن البروتوكول وهكذا نعرف رأيهم.

أوتون الثالث: إنها فكرة رائعة. (إلى الحضور.) انتبهوا، انتبهوا لحظة.

(يستعد البلاط للاستماع.)

أوتون الثالث: منذ زمن ونحن نرى أهمية رفع البرتوكول، وكذلك إعطاء الاحتفالات الكنسية فخامة أكبر. إنها فكرة قديمة لصاحب القداسة، إذ يريد تنفيذ أعمال كبيرة. (إلى جيلبرت-سيلفستر الثاني.) لكن استعرض الموضوع أنت.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: كنت أفضل...

أوتوت الثاني: الفكرة فكرتك، وبلا شك، ستعرضها بملائمة أكبر.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: في زياراتي للأندلس تمكنت من التعامل مع حكام: زرت قصورًا، حضرت حفلات، عرفت برتوكولهم، ومن تأمل كل هذه الأبهة استنتجت – كما أكدوا لي- أن إظهار الثراء بهذا الشكل ليس سوى طريقة لتوطيد السلطة. لهذا يجب أن نتساءل عمّا إذا كان ضروريًا في المستقبل أن تقام احتفالاتنا العامة ببذخ أكبر.

كاردينال: لكن هذه عادات كفار.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: ليس لأن الكفار يشربون ماء، فعلينا نحن المسيحيين أن نموت عطشًا.

(ضحكات عامة.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: (**بعد وقفة.**) كل شيء هناك مدهش، ولكن من بين كل العجائب كانت مدينة الزهراء هي التي أدهشتني. وهي عبارة عن قصر عجيب، حيث يخدم الخليفة ما يقرب من أربعة آلاف رئيس خدم وأكثر من ستة آلاف امرأة، بين نبيلات وحظايا وخادمات وجوار.

سيدة: لا أعتقد أن صاحب القداسة يزمع إقامة نظام الحريم في روما كي يحجبونا عن الناس نحن المسيحيات في أمكنة الهلاك هذه؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: (بغضب.) لا تقلقي، فهذا ليس غرضنا.

أوتون الثاني: عليك أن تتركيه ينهي كلامه.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: يتم ولوج قصر الزهراء عبر حدائق حيث تتبع النباتات نظاماً هندسياً. جنان ظليلة حيث تجري المياه في كل مكان. جداول، حمامات سباحة، مجار، نوافير... كانت هناك واحدة لا مثيل لها حيث يوجد أسد يقذف بالماء من فمه. آه، وحوش، وحوش حية، حيوانات جُلبت من إفريقيا، بعضها مذهل، من بينها حُصن ذات رقبة هائلة يطلقون عليها زرافة.(وقفة.) يمكن الحدائق أن تكون سكنى، ولحظة دخول القصر تجد الأعمدة تشبه غابات النخيل. وهكذا فإن الغرف والحدائق تتوالي على شكل لآلئ في عقد. الصالات كانت مغطاة بالخز والسجاد. وكثيراً ما كانت تُشاهَد طيور من الصياغة تحرك أجنحتها على صوت الأجراس. كل شيء كان مثيراً للدهشة... أتذكر سرادقاً من البلور كان يطفو فوق الماء وفيه كانت الأسماك تسبح تحت أقدامنا. أما الصالون الذهبي حيث التقاء شعاع شمس ونافورة زئبق كانت تشاهد نجوم تدور في شبه ظلمة كما لو كان خلق الكون، ولكن عندما كانت تهتز المعادن كان تحدث دهشة، وبين البرق والرعد كان يمكن أن تشاهد كيف تسقط السماء وتصل ساعة يوم الحساب. (وقفة.) قصور قرطبة التي زرتها كانت أكثر: قصر الرصافة، قصر القصر، قصر الزاهرة، قصر الناعورة وآخر صغير، شُيد على النهر، نسيت اسمه، لكنني

حدثتكم عن هذا كي تتصوروا أحسن كيف شعر ملك نبارًا عندما ذهب ليتفاوض على المعاهدة مع الخليفة. يحكى أن موكب النبلاء الذي استقبله تقدمه موسيقيون وراقصات، يحرسه رؤساء خدم في غاية الأناقة، وكانوا يسيرون جميعاً في هدوء عظيم، يتوقفون إلى جانب النافورات، بحيث أنه خلال التوقف كان النبلاء هم الذين يقدمون لهم التمر والحليب، في حين أنه عندما كانوا يسيرون كانت الجاريات يقلقين الزهور عند مرورهم. كان ارتباكه عظيمًا أمام هذا الاستقبال، إلى درجة أنه بينما ذهب عازمًا على دفع الجزية للخليفة، ولم يكتفِ فقط بالتراجع عن عزمه هذا أمام هذه الفخامة، بل قدم له ابنته بلانكا ليضمها إلى حريمه. فمثل هذه العجائب بالإضافة إلى إسعاد أصحابها تثبط همة الخصوم.

أوتون الثالث: والدتي، الملكة تيوفانيا- كما تعلمون عاشت زمناً في بيزنطة- كانت تحكي كيف كانت تقام الاحتفالات هناك في بذخ.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: في بلاد فارس، وفي مصر، وكذلك الملك سليمان أقام قصراً عجيباً. التاريخ يؤكد ذلك. ويكفي مشاهدة الآثار الباقية، ودون الخروج من روما لدينا شواهد على كيفية إرساء أركان إمبراطورية.

أوتون الثالث: ما نريده هو أن تسترد هذه المدينة التي تعرضت للسلب والنهب عدة مرات بهاءها القديم لتضيف مفخرة أكبر على العالم المسيحي.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لقد دخلنا الألفية الجديدة دون حدوث الرؤية النبوئية. فلا المسلون لا يقهرون ولا المنصور هو المسيح الدجال، وهو ما أراد البعض أن نصدق. هم أقوياء لأننا ضعفاء، وخوفنا يعزز

قوتهم. والآن حان الوقت لنصبح الأقوياء، فلنتعلم منهم ولنكافح متحدين من أجل هذا الهدف. (وقفة.) لقد اتخذت اسم سيلفستر لفترة توليتي البابوية تيمناً بالبابا الذي حقق للعالم المسيحي إلى جانب قسطنطين أعلى درجة من الرقي. وعلى هديهما نعتزم توحيد الكنيسة والإمبراطورية في إرادة واحدة، وبهذه الطريقة إعلان كلمة الإله الحقيقي في العالم.

(يتحول المشهد فجأة إلى شبه عتمة، ويختفي أعضاء البلاط في حين يجلس جيلبرت-سيلفستر الثاني أمام ابن مسرة.)

ابن مسرة: إعلان كلمة الله بأفعال شيطان؟

جيلبرت-سلفستر الثاني: ما الخطأ في أن نحمي أنفسنا من أعدائنا بالأسلحة نفسها؟

ابن مسرة: في الواقع لا يوجد أعداء أكثر من الحب والكره. وحدودهما لا تتفق أبداً مع حدود الإمبراطوريات أو أديانها.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لقد تعرض العالم المسيحي للإذلال. وما نريده بهذه السبل الجديدة هو أن يعي قدْره.

ابن مسرة: قيمة الرجال تكمن في روحهم. وهذا هو مكمن قوتهم.

جيلبرت-سيلفستر: لقد اهتممت قدر المستطاع بالروح: أصلحت الجماعات الدينية، أصدرت مجموعة فتاوى بابوية من أجل القضاء على الفساد في الإبراشيات. لكن هذا ليس كافياً. ليس ممكناً الانكباب على الصلاة، ولا يمكن الوصول إلى

القداسة تحت تهديد الإسلام. ولا توجد طريقة أفضل لعدم الخوف منهم سوى التوصل إلى أن يخشونا.

ابن مسرة: هل تزمع أن تكون قديساً وأن يهابوك في الوقت نفسه؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: ألا يكتسحني العدو. هذا هو ما أريد.

ابن مسرة: لكن الإسلام ليس عدوكم. ليس قديسي الإسلام. عدوكم هو المنصور.

جيلبرت-سيلستر الثاني: حقيقي. ولهذا كي أهزمه قررت منازلته. سنشيد معابد وقصورًا ستذهل الخلافة، وسنغزو القدس، على غرار غزوه لكومبوستيلا.

ابن مسرة: إن قيامكم بما يقوم هو به سيجعلكم مثله.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: إن حماية الروحانية لا يمكن أن تضر روحانيتي.

ابن مسرة: ماذا تنتظر: وجود الله في عظمة الاحتفالات أم في أرض المعركة؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لقد بحثت عنه دائماً في عجائب الخلق. وبهذه الطريقة أريد أن يجده العالم المسيحي كله في عمله. لكن كيف يمكنني أن أبشر بكلمة الله من مدينة أتلفتها السموم؟

ابن مسرة: لم أكن أعلم أن الحرب أو التفاخر ترياق ضد الشر.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: سأفعل أي شيء. (**وقفة.**) منذ شبابي في طرّاغونة، قبل معرفة كتبكم، أدركت بالحدس أن الدين لا يفيد في شيء إذا لم يحملنا إلى التجربة الروحانية. ولهذا عند إدراك بؤس الحياة في الدير تركت الرهبنة وخرجت إلى العالم مقتنعًا بأن الله كان ينتظر مني مآثر عظيمة، منذ ذلك الحين أصبحت نياتي كلها، جهودي جميعها تشكل خطة لتحقيق هذا الهدف.

ابن مسرة: وكذلك التحالف مع الشيطان؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لم أتحالف قط مع الشيطان!

ابن مسرة: ألم يكن هذا حين حلمت بأنه عرض عليك السلطة والخلود؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: إن هدفي الوحيد هو تقريب شعب الله من التجربة الروحانية. لكنني لا أستطيع ذلك دون أن تكون لدي سلطة للقيام به.

ابن مسرة: ومن أجل الحصول على هذه السلطة تخليت، في المقابل، عن روحانيتك. أليس هذا تحالفًا مع الشيطان؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: إنها يد الله هي التي ترشدني. كيف تفسر إذن الأحداث العرضية التي حملتني من دير أورياك إلى قمة الفاتيكان؟ دراساتي في قطالونيا، رحلتي مع بوريّل إلى روما، دخولي البلاط الجرماني، الوصاية على آل أوتون... ألا ترى في هذا كله إرادة الله؟

ابن مسرة: إن استقامة الأهداف لا تهم كثيراً، إذا كان تحقيقها يدنسنا. إن الأفعال، وليست النوايا، هي التي تعظم الروح.

(في مستوى آخر، غرفة في قلعة باتيرنو حيث تقوم امرأة بمصمصة أتون الثالث[2].

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لم أطمع في أي سلطة في حياتي لاستغلالها لمصلحتي، فكل ما قمت به كان في خدمة الله. وعليه آمل أن أحاسب من هذا المنطلق عندما ألقاه.

---

[2] هذه الإرشادة المسرحية مهمة لتطور أحداث المسرحية لهذا رأينا ضرورة الإبقاء عليها، بعد تطويعها لقارئ العربية، منعا لإثارته، وعليه أن يطلق العنان لخياله كي يدرك ما حدث. ولمن يجيد الإسبانية ويعرف خباياها فيمكنه أن يطلع على النص الأصلي صفحة ٢٦١. (المترجم).

ابن مسرة: لن يكون ضرورياً الانتظار. أفعالنا تحكم على نفسها، وفيها تكمن الإدانة. (**ويشير إلى أوتون الثالث.**)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: (**عندما أدرك ما يحدث.**) وما سبب هذه الرؤية؟

ابن مسرة: الإمبراطور، فهو يتسلى.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لكنه ذهب إلى الأدرياتك كي يستقبل الملكة، إذ تأتي للخِطبة.

ابن مسرة: إنها أمامك.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لا...، لا ...، ليس ممكنًا، لا يمكن أن تكون هي. كما لو كانت توقفت في خان.

ابن مسرة: إنها تقضي الليلة، ولكن ليس في خان، بل في قلعة باتيرنو.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: (**متفهماً وفيه حنين.**) خطايا شباب جميلة.

(بعد أن انتهت المرأة من المصمصة، تعتدل في جلستها، تعطي ظهرها لأوتون الثاني، وتنظف نفسها بقرف.)

امرأة: (**تبدي اعتناءً.**) هل أعجبكم؟

أوتون الثالث: (**يضحك.**) الواقع إنني خشيت أن تمُشّي السلسلة الفقرية.

امرأة: إذا ما وضعتموني في خدمتك زوجك القادمة، سأكون في خدمتكم دائمًا في كل ما لا تقوم به الملكات.

أوتون الثالث: إنه تبصر مغرٍ جداً.

(تتجه المرأة إلى طاولة يوجد فوقها جرّة وكاسان، ثم تقف أمام جيلبرت-سيلفستر الثاني.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: (مرعوبًا.) لربما تكون زوج كريسشنزيو.
ابن مسرة: يبدو أنها هي.
جيلبرت-سيلفستر الثاني: لكن... لكن كيف لم تتعرف إليها؟
ابن مسرة: إن الرغبة تعمي مثل الكراهية. إذا كان الغضب حينئذ فالآن الشبق هو ما يغشي عقلها ويحجب عينيها.

(بعد أن ملأت جرّة، في حين يعدل أوتون الثالث ثيابه، تمضمض فمها بالنبيذ وتتفله.)

أوتون الثالث: ألا تشربينه؟ إنه نبيذ ممتاز من بورغونية.
امرأة: كانت لدي رغبة في التمضمض.

(تملأ الكأس من جديد وتمشي نحوه بطريقة تحريضية، فيها إثارة. بعد ذلك تجلس على ركبتيها، تشرب وتعزم عليه.)

امرأة: ألا تريدون؟
أوتون الثالث: (باشمئزاز.) أريد كأساً أخرى.

(تهم السيدة بتقديم الكأس، لكن أوتون الثالث يوقفها.)

أوتون الثالث: في الحقيقة وجهك...
امرأة: ظننت أنكم لن تتعرف إليّ.
أوتون الثالث: هل تقابلنا من قبل؟
امرأة: نعم لقد سبق لي أن رأيتكم.
أوتون الثالث: ولابد ... أنني رأيتك؟

امرأة: منذ ثلاث سنوات وأنا أعمل في خدمة كونتي باتيرنو. وخلال هذا الوقت أمضيتم بعض الليالي في القلعة في أكثر من مناسبة. إلا أنني لم أستطع لفت انتباهكم حتى اليوم. مهما تعمدت ذلك.

أوتون الثالث: كنت متعبًا وكان العقل مشغولاً بأمور الإمبراطورية.

امرأة: بينما ما يقلقك الآن هو قدوم زوجك الجديدة.

أوتون الثالث: (**يضحك.**) بعد التعرف إليَّ ...طلاقة لسانك، إنني آسف على الفرص الضائعة.

امرأة: يعتمد عليكم أن أصبح في خدمتكم عندما يروقكم.

أوتون الثالث: هل ترغبين في ذلك؟

امرأة: من المفضل معاشرة الإمبراطور دون زواج على أن أكون زوجاً لوغد.

أوتون الثالث: سيُنظر في الأمر، وقد تربحين قوتك طوال الحياة هذه الليلة.(**مشيراً إلى الجارة.**) لكن ضعي لي نبيذًا في القدح.

(تقترب المرأة من الطاولة، في حين تغطي بجسمها تفرغ قنينة في القدح قبل أن تسكب النبيذ، ثم تقدمها لها. وبينما يحدث هذا:)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: ستقتله.

ابن مسرة: هذا بالفعل.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لكن ... افعل شيئًا.

ابن مسرة: ماذا تريد أن أفعل؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لا يمكن أن يموت الآن.

ابن مسرة: لا يمكن عمل شيء سوى النظر. الحضور.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: ليس في هذه اللحظة.

ابن مسرة: ألم يكن هذا ما فعلته أنت عندما مات كريسشينزيو؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: يجب أن يعيش! أحتاج إليه حيًا كي أحقق أهدافي.

ابن مسرة: إنك ترى كيف انهارت الأحجار التي كنت تفكر في بناء مستقبل العالم المسيحي عليها.

(المرأة تقدم الكأس لأوتون الثالث وتنتظر إلى جانبه بينما يأتي على آخرها. بعد تناولها يبقى أوتون الثالث جامدًا للحظة. يشعر بما يحدث. يلقي بنفسه عليها وهو يسقط والألم يعتصره.)

أوتون الثالث: (**بجهد.**) يا قاتلة! (**يتماسك.**) ساعدوني!

(يحاول أوتون الثالث أن يقف، لكن المرأة تخطف منه الخنجر، وبركلة تسقطه على الأرض مجددًا.)

امرأة: مثل الكلب. ستموت إذن، ككلب.

أوتون الثالث: الحرس! ساعدوني! (**يصيح حتى لا يستطيع أن ينطق.**)

امرأة: (**مطأطأة الرأس بجانبه.**) هل تعرف من أنا يا هذا؟ هل تعرف من أنا؟

(أوتون يحاول الاعتدال، لكن المرأة تمسكه من شعره وتشده من رأسه إلى الخلف لتمنع حركته.)

امرأة: إنه لجميل هذا النبيل. سنقدمه للديدان كي تستمتع به.

(أتون الثالث يتخلص منها، يضربها ويجعلها تتدحرج. في أثناء المناوشة تفقد المرأة الخنجر.)

أوتون الثالث: المساعدة! العون! المساعدة!

(إلا أن المـرأة تـنهض بسـرعة وتضـربه فـي المعـدة. يتلـوى أوتـون الثالـث. تسـترد المـرأة الخنجر، تستند إلى الرقبة وتلكمه في وجهه.)

امرأة: ثلاث سنوات وأنا في انتظار هذه اللحظة، والآن أريد ألا تموت أبدًا. أن تستمر في المعاناة من الألم.

(يواصل الأنين ويصاب بالغثيان ومع هذا يهجم على المـرأة ويحاول ضـربها بـالخنجر، لكنهـا تبتعد.)

امرأة: إنك ميت، ومعك تنتهي ذريتك. لن يكون هناك أي واحد من آل أوتون على أرض روما. انتهى الأباطرة الجرمانيون. الوريث الذي كنت تنتظره بعد الزواج، ابن العقرب موجود في فمي. ميت! **(بإهانة.)** هل استمتعت؟ **(بكراهية.)** أنظر **(تبصق من فهما ما مصمصته منه.)** هذه هي جثته أمامك. **(يخفت الضوء في الجزء الخلفي تدريجيًا.)**

ابن مسرة: هل سمعت هذا؟ ولا حتى ولي عهد لتربيته. ولا ولي عهد ليواصل ما شرعت فيه.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: **(بصوت خفيض.)** يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي!

ابن مسرّة: هل هذا حدث آخر من الأحداث التي ساقها الله كي تحقق الكنيسة الروحانية؟ أليست سخريات شيطان؟

(ينخفض الضوء الذي كان مسلطًا عليهما بحيث إن المشهدين ينتهيان في ظلام واحد.)

المشهد الخامس

(بين روما والقدس، ١٠٠٣ م.)

(يبدأ المشهد في عتمة تامة.)

ابن مسرة: **(على طريقة الصدى.)** أليست سخريات شيطان؟

جيلبرت- سيلفستير الثاني: كيف لي أن أعرف ذلك؟ إنني مجرد إنسان، ولا يمكنني عمل أي شيء ضد القدر.

ابن مسرة: المصير يصنع بالإرادة. لا يأتي أي شيء مفروضًا علينا.

جيلبرت- سيلفستر الثاني: ألم أقدم قصارى جهدي؟ إنك ترى كيف أن هذه الطريقة العبثية، الانتقام العبثي، أضاعت حلم حياتي.

(ضوء خافت، كلما يزداد شيئًا فشيئًا يكشف لنا عن دلو من الحجر وسط المشهد.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: بينما كنت أتطلع إلى تعظيم ملك الله، كل شيء كان له معنى. ولكن الآن...

ابن مسرة: لا تزال أنت الحبر الأعظم.

جيلبرت- سيلفستر الثاني: وماذا يمكنني أن أفعل ونبلاء روما يتنازعون السيطرة على المدينة، والإمبراطور الجديد الذي يعدُّني لحظي العاثر بين أعدائه غائب في بورغونية؟ قل لي: ماذا يمكنني أن أفعل دون أن يساعدني ولا يعضدني أحد؟

ابن مسرة: ادع إلى كلمة الله. ألم يكن هذا وراء طموحك في السلطة؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لا تكن قاسياً معي. إذا دعوت إلى كلمة الله حسب إيماني فغدًا ستشيع جنازتي.

ابن مسرة: إذا كنت قد فقدت السلطة، يمكنك أن تتخلى عن التحالف، وذلك بعدم تنفيذه.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: التحالف؟ أي تحالف؟

ابن مسرة: الذي منحك السلطة والخلود.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لم يكن تحالفًا، كان حلمًا.

ابن مسرة: التحالف، الحلم، ماذا يهم؟ كسّر المرآة. أتتذكر أنني أعلنت عليك هذا منذ زمن؟ إنك أمامه، ففي الذهب تنعكس صورة أفعالك.

(يزيد الضوء، في حين يستمر جيلبرت-سيلفستر الثاني وابن مسرة في الظلام.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: الذهب؟ المرآة؟

ابن مسرة: أفهم أنه لا يعجبك، لكن أفعالك هي التي جعلت منك ما أنت عليه الآن، وإذا كنت تريد أن تعود لتصبح ما كنت من قبل فعليك أن تتراجع عن كلامك: بخرق الاتفاق، بتدمير المرآة.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لكن ... عمَّ أتراجع؟

ابن مسرة: ألم تكن تنوي السفر إلى الأراضي المقدسة؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: نعم.

ابن مسرة: لغزو القدس.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: نعم، لكنني لا أفهم.

ابن مسرة: استبدل العكاز بالسيف واذهب حاجًا.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: **(متلعثمًا.)** حاجًا؟

ابن مسرة: لإقامة قداس.

(يدخل جيلبرت-سيلفستر الثاني منطقة الضوء.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: (**متناقشًا**.) قداس؟ أي قداس؟

ابن مسرة: نعم، قداس في القدس.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لا. غير ممكن.

(يخرج جيلبرت-سيلفستر الثاني من منطقة الضوء.)

ابن مسرة: هل يستطيع بابا روما أن يذهب إلى الأراضي المقدسة ليغزوها بالسلاح ولا يستطيع أن يقيم قداسًا في القدس؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لكن، ما السبب؟ لماذا قداس؟

ابن مسرة: لخرق الاتفاق.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: كيف تعرف ...؟

ابن مسرة: ألم يمنحك السلطة والخلود؟

(جيلبرت-سيلفستر الثاني يدخل منطقة الضوء.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لا!

ابن مسرة: ... مقابل عدم إقامة قداس في القدس؟

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لا يمكنك أن تعرفه!

ابن مسرة: إنني أعرف.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لكن... كيف؟ كيف عرفته وأنا لم أقله لك قط؟

ابن مسرة: لأنني الشيطان.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: أنت؟

ابن مسرة: هذا ما سيقوله عني أولئك الذين يقسمون العالم إلى نصفين بحقائق ثابتة.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: أنت، الذي يحب الأشياء السهلة؟ أنت الذي تمجد الروح؟ كيف يمكنك أن تقول إنك الشيطان؟

ابن مسرة: الشيء نفسه، فللسبب نفسه يمكنني أن أقول لك إنني لست الشيطان.

(جيلبرت-سيلفستر الثاني يخرج من منطقة الضوء.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لا تتلاعب بي. سواء أكنت ملاكًا أم شيطانًا، لا تهزأ من مصيبتي.

ابن مسرة: كل شيء في عقلك. أنا في عقلك. مثل الله والشيطان في عقلك. إننا عقلك. عليك أن تتصالح مع روحك، ما دام أن عقلك هو الذي يلعب معك.

(يدخل جيلبرت-سيلفستر الثاني منطقة الضوء.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: ضوءًا، مزيدًا من الضوء!

ابن مسرة: تريد الذهب للوصول إلى الضوء، والذهب يعيدك إلى الظلام.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: لكن ألم يكن صقل المعادن نفسها يؤدي إلى الحصول على الرأس الذهبي، الرأس المشع، الرأس الطائر؟

ابن مسرة: إنك تخلط بين التحالفات والأحلام. الدابة التي كانت تتحول إلى رجل برأس طائر، بينما كانت تتكلم معك، تنتمي إلى الحلم. وهكذا كان يشير إليك كيف يمكنك بجهدك أن تحول الجهل إلى معرفة. لكنكما تحالفتما. كان تحالفاً لا يحتاج إلى توقيع ولا إلى رأس ناطق، ولا إلى بافوميت، ولا إلى أي شيء يشبه الشيطان، اتفاق معك نفسك. ذلك الذي كنت تطلبه من ذاتك.

جيلبرت-سيلفستر الثاني: إنها أشياء ثُقال ...
ابن مسرة: وتنفذ (وقفة.) حكم العالم من روما بدلاً من إقامة قداس في القدس. لقد وصلت إلى مكان الإمبراطورية مقابل التخلي عن مكان الروح.
جيلبرت-سيلفستر الثاني: لكنني كنت دائماً أريد أن أذهب إلى القدس.
ابن مسرة: لفتحه. رحلتك لم تكن للتبجيل، بل للتدنيس.
جيلبرت-سيلفستر الثاني: كنت أريد أن أسترده للمسيح.
ابن مسرة: أهو بالمناسبة في حرب مع الله؟ (وقفة.) أحلامك قادتك إلى القداسة، لكن ولعك بالسلطة حملك إلى الغياهب. وهذه هي الصورة التي تعيدك إلى المرآة: صورة بابا مرعوب، مثل أسلافك، يهرب من السموم.
جيلبرت-سيلفستر الثاني: لكنني كنت أريد أن أطهر الكنيسة. القطيعة مع ماضيها.
ابن مسرة: كيف يُعلن عن الحرب المقدسة بأعمال مترفة وبحفلات؟
جيلبرت-سيلفستر الثاني: هكذا هو العالم، وعلي أن أتذرع به. هل حرب الآلهة هذه ذنبي؟
ابن مسرة: في حالة وجود الله فهو واحد، لا نهاية له، وهو نفسه. وطريقة خدمته لا تكمن في القتل باسمه.

(يتركز الضوء على كتلة الحجر، الذي تحول إلى مذبح. في النهاية يلاحظ وجود شخص راكع.)
جيلبرت-سيلفستر الثاني: وماذا تريد أن أفعل؟
ابن مسرة: الرحيل للحج.
جيلبرت-سيلفستر الثاني: كيف؟ ليس ممكنًا.
ابن مسرة: اخرج عند الفجر، مثلما عندما هربت من الدير.
جيلبرت-سيلفستر الثاني: لم أعد راهباً. إنني بابا روما.

ابن مسرة: فلا تكن البابا. اترك الفاتيكان إلى الأبد وكن بابا المسيح في القدس.

(ضوء مسلط على الموت، الذي يصلي راكعاً.)

جيلبرت- سيلفستر الثاني: لكن هذا سيعني نهاية الكنيسة.

ابن مسرة: نعم، نهاية سلطتها الدنيوية، لكن أيضاً إنعاش روحها.

(يقرع الموت جرسًا. جيلبرت-سيلفستر الثاني يبقى صامتًا أمام المذبح. يعود الموت إلى القرع. جيلبرت-سيلفستر الثاني يخلع تاج البابا المثلث ويرفع الذارعين، في حين يزداد الضوء -مركزًا- إلى أقصى درجة.)

جيلبرت-سيلفستر الثاني: السلام عليكم.

الموت: وعلى روحك.

(تقرع الأجراس لصلاة المجد لله، ويحل الظلام، ويسدل الستار.)

بقدر ما هو مطروق هو مجهول لنا نحن العرب موضوع الأندلس ، فالحديث عن هذه النقطة المضيئة فى تاريخ الحضارة البشرية ، بكل ماتعنيه من سمو وانحطاط فى التاريخ العربى ، حديث شجى ، مؤلم ، مثير للعواطف والأفكار المتطرفة ، كلها فى آن واحد . ما من عربى أو مسلم إلا ويفخر بالأندلس ، إحدى النقاط الفارقة فى تاريخ البشرية بكل ماعنيت وأثرت فى ضفتى بحر الروم .

تندرج هذه المسرحية ضمن الأعمال الأدبية الإسبانية التى تغوص بنا ، عربا وإسبانا ، فى أعماق ماض مشترك كانت تتعايش فيه الثقافتان اللتان تمثلان اليوم ضفتى البحر المتوسط . والأعمال القصصية والمسرحية التى تعالج هذا الماضى تثرى أرفف المكتبات الإسبانية دون اهتمام كبير من قبل الاخصائيين ، وتستحق أن تنقل إلى لغتنا ، ومن بين هذه الأعمال يمكن الإشارة إلى « أهلا » ، و « مقبرة » ، و « مكتوب » ، و « كتاب » ، و « الزهراء » . وهى عناوين جاءت كما هى عربية بحروف إسبانية دون ترجمة .

والتراث المشترك ممثل بشكل جيد فى هذه المسرحية المكتوبة على أعتاب القرن الحادى والعشرين ، فى مناخ معاد للضفة الجنوبية لحوض المتوسط . وهى دعوة إلى موقف انتقادى أمام الواقع . إنه واقع يقترح مراقبة حاضر يحاول الشركاء فيه تجميله بأدوات رثه كى لا ندرك أنه يماثل ماضيا عاشته المنطقة من تكرار مكائدهم وحيلهم .

فى هذه المسرحية ، ذات البعد التاريخى ، لا يرغب المؤلف في سرد أمجاد الماضى ، بل فى أن يكون العمل أداة نموذجية لانتقاد نواقص الحاضر عبر الاقصاء . ولهذا فإنه يسترد شخصا من الماضى المشترك للثقافتين بهدف جعل المشاهد يتأمل ويفكر فى مواقف وتصرفات تنتمى إلي الحاضر علي أساس أحداث من الماضى . وعليه أن يستخدمه في التأمل فى عيوب وتعسف ونواقص لا تزال ترتكب رغم مرور الزمن وطوله .

ومع ذلك فهى تعد عرفانا بفضل العرب عل الحضارة البشرية من خلال الحضور العربى الزاهر في شبه جزيرة أيبريا ، إسبانيا والبرتغال . ولعل أبرز نموذج في هذا الصدد هو الذى يسرده البطل فى مداخلات عدة حول مدينة الزهراء ، منها مداخلة تتعدي الصفحة ، حيث يحكى فيها تجربته فى هذه المدينة ، القصر ، خارج مدينة قرطبة ، مع كل ما تمثله وترمز اليه من أبهة معمارية وتنظيم إدارى وسياسي ، أى أنها نداء لتعايش يرغبه ويشتاق إليه كثيرون من الشرق العربى والغرب .



وإمعانا فى نقلنا إلى ذلك المناخ العربى الأندلسي يطرز المؤلف مسرحيته بكلمات عربية دخلت واستقرت في اللغة الأسبانية ، كلمات تنتمي إلى تلك الحقبة ، من بينها : وزير ، قاض ، حريم ، فقيه ، جـ
بالاضافة إلى أسماد الأعلام التى تزين النص المسرحي .

ولفهم المسرحية يجب وضعها فى سياق معاصر إذ يمكن أن تنسحب أحداثها علي المسرح
ومواجهات بين ثقافات العالم المعاصر . تدور مشاهدة المسرحية في إطار الواقعية التاريخ
معرفة عريضة بالموضوعات التي يطرحها ، ويفاجئ القارئ العالم بهذه المعرفة . ومن بين
علي المصادر العربية ، خاصة تلك المتعلقة بالإحالات التاريخية والفلسفية للصوفية . ور
القارئ أو المشاهد إلى هذا المجال ، وهو ما أكده الكاتب إدريس شاه 1 فى كتابه عن الصوفية
للعنوان ، إذ أخذ من " رأس الغول " أو " رأس الشيطان " في الفكر الصوفى . وهو عنوان يـ
ويحيلنا إلى حلم السلطة ، السلطة المطلقة .